

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة عباس لغرور - خنشلة -

كلية: الآداب و اللغات

قسم : اللغة و الأدب العربي

التخصص : أدب حديث ومعاصر

المهوية والزنوجة في رواية "لأنني أسود" - لسعداء الدخاس -

بحث مقدم لقسم اللغة والأدب العربي لاستكمال مقاييس شهادة الماستر

في اللغة والأدب العربي تخصص : الأدب الحديث والمعاصر

إشراف:

إعداد الطالبة:

- د. سميرة قروي

- ريان بوجيج

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
كمال طاهير	أستاذ محاضر -أ-	جامعة عباس لغرور -خنشلة-	رئيسا
سميرة قروي	أستاذ محاضر -أ-	جامعة عباس لغرور -خنشلة-	مشرفا ومقررا
إيمان ملال	أستاذ محاضر -ب-	جامعة عباس لغرور -خنشلة-	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2018 - 2019

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الخالص للأستاذة المشرفة
الدكتورة " سميرة قروي " التي تبنت بحثي
هذا وألقت النور في طريقه ، بتسديد الخطى
وتقديم التوجيهات والنصائح القيمة.
كما أتقدم بوافر الشكر لأعضاء لجنة المناقشة
التي تحملت عناء القراءة والتصويب، دون أن
أجفء في حق الجامعة التي احتضنت
مشواري الدراسي بشكل عام وكلية الآداب
واللغات بشكل خاص ، وكل أساتذة الجامعة
دون استثناء .

إهداء

إلى الأنا المشوهة التي تسكن الآخر
وإلى الآخر المشوه الذي يسكن الأنا

اعتذار

إلى المتحررين في قيد العبودية
وإلى المستعبدين في ثوب الحرية
بلال وأمية



سأل زنجي أمه: لمَ يا أمي خلقت أسوداً؟ فأجابته: "لأن الشمس تحبك يا ولدي".

فهل هناك علاقة بين الظلام ومن ثم الظلم، وبين الشمس؟ قد تكون....

تبدو الجملة وكأنها تؤرخ لتاريخ كل أنواع التمييز والاضطهاد والإقصاء، وتغطي كل جغرافية يمتد فيها منطق الإلغاء ومصادرة حق الاختلاف في اللون والثقافة والدين والمذهب... كما تبدو أيضاً وكأنها تؤرخ لهذه العلاقة بين المضطهدين والمقموعين الذين يبحثون على مدار التاريخ عن الشمس؛ شمس الحرية، والتحرر، والتحليق خارج دائرة الموت قهراً.

كنت في ظل قراءات عابرة، قد قرأت رواية تحمل عنوان: "لأنني أسود"، وعلى امتداد صفحات هذه الرواية التي تبلغ (264 صفحة)، كنت أتابع رحلة اللون حين يتحول إلى لعنة، والثقافة حين تتحول إلى جلاذ.

وحين سألت الروائية، صاحبة الرواية "سعداء الدعاس"، عن سر "لأنني أسود" كتبت إلي قائلة:

"حين شرعت بكتابه "لأنني أسود" كنت أبحث عن صيغة مثلى للاعتذار ... لكل مختلف نبذنا اختلافه، وفرضنا عليه صورة تشبهنا ليمائل فكرنا، ويتطابق ومعتقداتنا، كنت أبحث عن لحظة تطهير من ذنب ظل يسكنني لسنوات طويلة بعد حادثة صغيرة جمعني بثلة من الشباب السود في حافلة جامعية في مدينة كاربونديل جنوب ولاية أيلوني الأمريكية ...

كنت ارتجف طوال تلك الساعات التي قضيتها في الحافلة خشية عرق صدرته معظم أفلام هوليوود كمجرم عنيف ... ما إن توقفت الحافلة حتى بادر أحد أولئك الشباب بمساعدتي على حمل أكياس الكتب التي أتعبت يدي، وساعد آخر عجوزاً شقراء في النزول إلى المحطة... لحظتها تذكرت أنني عربية بعينين سوداوين وشعر أسود فتساءلت : ماذا لو أن العجوز رفضت صعودي إلى الحافلة وجلوسي بجانبها بماذا كنت سأنعته؟

في ثوان تذكرت أن مثلي يعاني في مكان ما من العنصرية، راقبت قسوتي، كرهت تصوراتي المسبقة وتمتعت باعتذار وعاهدت نفسي على الكتابة". وهكذا تحولت معي القراءة التي كانت في البداية عابرة، إلى قراءة باحثة، وجاء العنوان التالي:

"الهوية والزنوجة في رواية "لأنني أسود" لسعداء الدعاس.

وقد كان سؤال استفزازي يطاردني منه استوحيت إشكالية هذه الدراسة يتمحور في:

- كيف تتحكم الثقافة بما هي منظومة من التصورات والأنساق في تطير وصياغة نظرتنا لذواتنا وللآخرين؟ لقد يبدو في أحيان كثيرة أن الثقافة تعلمنا كيف نحيا، ولكنها تعلمنا أيضا كيف نموت. بل إنها تعلمنا أيضا كيف نمارس القتل المادي والمجازي معا.

وقد استتبع هذا السؤال أسئلة أخرى هي:

- كيف يتحول اللون من كونه معطى بيولوجيا وطبيعيا، إلى نسق ثقافي تمارس بسببه أو باسمه كل أنواع التمييز والإلغاء والإقصاء؟
- ثم كيف تتحدد هويتنا نسبة إلى لون بشرتنا؟!
- وما هي الصدوع التي تصيب هذه الهوية في عمقها حين تتحدد من خلال لون أو ثقافة أو مذهب أو منطقة في المكان أو الزمان؟
- وأخيرا كيف يستوعب النص الروائي هذه الإشكالات الثقافية، ومن أي وجهة نظر يعالجها؟ أي هل يسهم الخطاب الروائي في تفكيك خطاب التمييز؟ وماذا يقدم كبديل؟ ووفق أية إستراتيجيات منظمة وموجهة؟

وتتعلق دراستي أساسا بمحاولة رصد الرواسب الثقافية لفعل العنصرية في البيئة العربية والغربية وما أفرزته وخلفته من آثار نفسية، تبدأ برفض الذات وتنتهي بممارسة فعل الاضطهاد ومجابهة العنصرية بالعنصرية، موظفة المنهج الموضوعاتي لبلورة الرؤيا الشاملة والكلية لموضوع رواية لأنني أسود ورصد التعالقات الموجودة في هذه الرواية.

أما عن أهداف الدراسة فتمثلت في :

- تشريح الواقع الثقافي لرواية "لأني أسود"، ومعرفة الرواسب الثقافية لفعل العنصرية في كل بيئة (الكويت - الولايات المتحدة الأمريكية).
- الكشف عن الأنساق الثقافية التي ساهمت في تفعيل العنصرية وتأجيحها.
- كيف ساهم اللون في إحداث شرخ وتشظي هوياتي لدى الملون.

وفي محاولة لتفعيل هذه الأهداف وللإجابة عن الأسئلة المطروحة رسمنا خطة

كالتالي:

مدخل نظري موجز: تناولنا فيه ضبط المصطلح من هوية وزنوجة، وكذا الحديث عن البشرة السوداء ومعضلة العبودية في الفترات الثلاث: قبل الإسلام، بعد الإسلام وفي العصر الحديث .

أما الفصل الأول: والمعنون بـ "الهوية ومقاييس الجمال" تحدثنا فيه عن اللون كنسق ثقافي، والتأصيل لثنائية السواد والبياض في الثقافة الإنسانية، من خلال الدين والقيم، والبناء الفيزيولوجي للزواج والأثر الذي جلبه اللون في نظر الآخر - على البنية الجسدية والقدرة الجنسية، ثم تطرقنا إلى عنصر "هوية الأنا واختلاف الآخر" لنختم الفصل بالعنصرية من خلال عدسة السينما.

أما الفصل الثاني: فقد جاء موسوماً "بالأنساق الثقافية والتصدع الهوياتي"، تطرقنا فيه إلى المبررات الثقافية لفعل العنصرية في البيئة العربية والغربية، و بعض الآثار المورفينية التي أحدثها النسق الثقافي في تخفيف حدة العنصرية وتوهجها . لنطوى بحثنا بخاتمة كانت عبارة عن نتائج لأهم ما ورد في المتن .

وقد استعنا ببعض المراجع التي من أهمها:

- العنصرية والتعصب العرقي من التمييز إلى الإبادة الجماعية لأيان لوو.
- نقد العقل الزنجي، لأشيل ميمبي.
- تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، نادر كاظم.

• النقد الثقافي قراءه في الأنساق الثقافية العربية، لعبد الله الغدامي.

والحمد لله أنجزنا هذا البحث ولم تواجهنا أي صعوبة.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الوافر للأساتذة الدكتوراة "قروي سميرة" التي احتضنت هذا البحث والذي كان بمعينتها من البداية إلى النهاية، ولا يفوتني أن أشكر جامعة عباس لغرور، مديرا وإدارة ومسؤولين وأساتذة على خدمتهم للبحث العلمي وتوفيرهم لكل ما يساعد عليه.

مداخل

أولاً: الهوية والزوجة بين المفهوم والنشأة.

ثانياً : البشرة السوداء ومعضلة العبودية.

تمهيد:

العدالة، المساواة، الحق، الخير... نحن نرفع شعارات رنانة للأشياء التي نفتقدها أكثر، حين يتجرد الإنسان من إنسانيته فإنه يكون صورة مثالية لوحش مثالي، فوحش الغاب تحكمه غرائزه فيبطش حين يكون البطش وسيلته للبقاء اللحظي، لكنه لا يعي المستقبل لذا لا يبطش من أجل الهيمنة على طول خط الزمن، بينما الإنسان هو صورة لحيوان تحكمه الغريزة والعقل والقيم، فالغريزة تقوده نحو تمجيد أناه، والقيم تحجمه من أجل أن يستوحش والعقل يدفعه لتخطيط لما سيكون غدا، فتحدي البقاء عنده ليس لحظي لذا يسعى دائما للسطوة والهيمنة.

فإذا تجرد من القيم صار في سبيل هيمنته أشد وحشية من الوحوش في براريها، لذلك نجد أن العدالة التي تغنت بها كل الديانات السماوية والوضعية كانت دائما في صفحة تاريخ الإنسانية مزمارة أجوفا ينفخ فيه الهواء ويخرج منه صوت رنان، لكن لا يكون ذلك الصوت إلا صورة للحرمان، فكانت طبيعة تعامل الإنسان مع بني جلدته تحدد باعتبار الانتماءات العرقية والجغرافية واللغوية والعقدية والثقافية... وغيرها من الواوات التي يبرر بها الإنسان حبه للهيمنة والسطوة وتمجيده للذات المفردة على حساب الذات الكبرى التي هي الإنسانية. وإذا أردنا أن نسأل عن أسباب ودواعي التقسيم العنصري فإننا نجد له سببين لا ثالث لهما - وكل سبب من بعدهما فهو متضمن فيهما - وهما الخوف والطمع؛ الخوف من الزوال والطمع في البقاء، فكل جماعة إنسانية مهما كانت حدودها الجغرافية تحكمها أو حكمتها مجموعة من الروابط الداخلية التي تمنع نواتها من التفكك، فإذا دخلت جماعة أخرى إلى حيزها فإنه ينشأ الخوف من التفاعل أو الذوبان فيها، فتبدأ بالاضطهاد وترفض هذا العنصر الوافد إليها كرد فعل مناعي من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الاضطهاد وكل ما ينطوي تحته من عنصريه وعنف وبطش هو قديم قدم الإنسان، ومنتصور أنه بدأ مع حاجة الشعوب الأولى للتنقل نحو المناطق الخصبة مدفوعة بالجوع والجفاف لتتقاطع خلال تنقلها مع جماعات أخرى فكانت بداية التداخل والتصادم.

إذا نظرنا إلى تاريخ الإنسانية فإن أكثر الجماعات التي تعرضت للاضطهاد هي التي تتميز تميزاً لونيًا، والسبب في ذلك أن بطاقتها التعريفية محملة على صفحات وجهها، فلو افترضنا أن إنسانا من شمال إفريقيا ذا سحنة بيضاء انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية فتعرض لمعاملة عنصرية، فإنه يمكنه أن يخفي انتماءه الهوياتي بأن يغيّر اسمه فيتخذ اسما عالميا ويتقن اللغة الانجليزية، لكن الأسود لا يمكنه أبدا أن يخفي أصوله.

ومن هنا ظهر تيار الزنوجة كحركة أدبية ثقافية تطرح موضوع الهوية والعنصرية في العالم الحديث، وقبل أن نتحدث عن موضوع الهوية والزنوجة كمسألة إنسانية إن صح التعبير، كان لابد لنا أن نقف وقفة عابرة على كل من مفهوم الهوية ومفهوم الزنوجة ثم نجري مسحة تاريخية على حياة السود عبر التاريخ.

أولا: الهوية والزنوجة بين المفهوم والنشأة:

1- مفهوم الهوية لغة:

ردت بعض المعاجم اللغوية مفهوم الهوية إلى الجذر اللغوي الذي اشتقت منه لفظة هوية معتبرة أنها "مشتقة من الفعل الثلاثي هوى يهوي، فيقال (هوى) الجبل: صعده وارتفع فيه".¹

على اعتبار هذا التعريف فإننا نجد أن كل ذي هوية يرتفع بنفسه ويرتقي بها إلى نسب معلوم أو جماعة مخصوصة، فكان هذا النسب أو الأصل كالجبل الذي يرجو مرتقيه أن يشرف على الناس من فوق فيكون عاليا عليهم، فمرتقي الجبل غالبا يكون مرفوعا، كما أن المنتسب إلى الأشراف من الناس والقبائل يماثله في الرفة المعنوية، ومن لا نسب له لا جبل له يرقاه فيرتقي.

وإن كان بعض المعجميين قد ردّ أصل الهوية إلى الفعل هوى، فقد رده بعضهم الآخر إلى الحرف (هو) معتبرين أن الهوية "هي من الألفاظ المنقولة لأنها عند الجمهور

¹ - جبران مسعود، معجم الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط7، 1962، ص: 22.

حرف وهنا اسم ولذلك ألحق بها الطرف المختص من الأسماء وهو الألف واللام، واشتق منها المصدر فقيل الهوية من الهو، كما تشتق الإنسانية من الإنسان والرجولية من الرجل¹.

فإذا تأملنا هذا التعريف نجده يخدم المعنى العام من الهوية وهو الذي يراد به "حقيقة الشيء من حيث تميّزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات"² فأنت مثلا حين تقول هو فعل كذا وكذا، فأنت حددت بقولك "هو" ذات مخصوصة معلومة لدى المخاطب، وبالتالي فإن الهوية في حدود هذا التعريف لفظ يراد به تحديد الذات المخصوصة المميزة المعلومة.

أما دلالة اللفظة في جانبها الاصطلاحي فهي تختلف من علم إلى آخر نظرا لطبيعة العلوم الإنسانية المختلفة، فضلا عن ذلك فمصطلح الهوية مصطلح فضفاض، زئبقي، التوائى في حركته لا يمكننا الإمساك بمعناه لأننا لا ندركه بالحواس بل بجوهره تقول "هويدا عدلي" في هذا الصدد "إن الباحث عندما يتعامل مع مفهوم الهوية على وجه الخصوص فهو يتعامل مع مصطلح قلق من الناحية النظرية، يثير أسئلة أكثر مما يقدم إجابات، حيث أنه من أكثر مفاهيم العلوم الاجتماعية شائكة النظر لما يثيره من إشكاليات عديدة"³.

لقد تعددت مفاهيم الهوية عند علماء الكلام لكنها حامت حول معنى يعبر عن "الحقيقة المطلقة المتمثلة على الحقائق اشتمال النواة على الشجر في الغيب المطلق"⁴.

¹ - مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 2007، ص: 667.

² - ابراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، دط، 1982، ص: 208.

³ - خليل نوري مسيهر العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، دار الكتب والوثائق العراقية، ط1، 2009، ص: 41.

⁴ - محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، دط، 2004، ص: 216.

فالهوية عندهم هي كنواة الشجرة أي هي الجوهر التي تحمل عليه خصائص الذات وصفاتها فتميزها عن غيرها، فمثلا إذا ألقينا بذرتين مختلفتين في ذات الأرض وسقيناها بنفس الماء فإن النبتتين تبقيان مختلفتين لأن الاختلاف بينهما طبيعي، فالهوية إذاً هي تعبير عن الخصائص الطبيعية التي تميز فرد أو جماعة على فرد أو جماعة أخرى.

أما في التراث الفكري العربي نجد عدة تعريفات للهوية فابن "رشد" يربط الهوية بالوجود فيقول: "تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الوجود".¹ وعليه فإن الهوية هي إثبات للوجود المتميز والمختلف، فالوجود هو وجود فكري مدرك لذاته وحقيقته واختلافه ولا يراد به مجرد الوجود السطحي المادي، وإلا لكانت للجمادات والبهائم هويات.

أما "الفارابي" فيقدم مفهوما يخدم هذا المعنى إذ يرى أن "هوية الشيء عينه وتشخيصه، وخصوصية، ووجوده المتفرد له الذي... لا يقع فيه إشراك"² وهذا التعريف -كما نرى - هو صورة متأخرة لتعريف متقدم جاء به "الجرجاني" حيث عرف الهوية على أنها "الأمر المتعلق من حيث امتيازه عن الأغيار"³.

فالهوية إذاً هي مجموع الخصائص التي يدرك من خلالها الشخص العاقل الواعي للفرق بينه وبين غيره.

إن مفهوم الهوية عند العرب لا يختلف كثيرا عند نظرائهم الغربيين؛ فـ "ديكارت" يجعل الفكر أساسا للوجود الهوياتي فيقول "أنا أفكر أنا موجود"⁴. وهذا يجلي صيغة أخرى

¹ - أحمد بعلبكي وآخرون، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، تقديم رياض زكي قاسم، بيت النهضة، شارع البصرة، لبنان، بيروت، ط1، 2013، ص: 23.

² - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج2، 1992، ص: 142.

³ - أحمد بعلبكي وآخرون، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص: 23.

⁴ - حسن حنفي، الهوية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط1، 2012، ص: 13.

للمفهوم الذي ذكرناه سابقاً عند "ابن رشد".

وفي نفس السياق يقول "سقراط" Socrates "اعرف نفسك بنفسك"¹.

فالانتماء عنده والشعور بالذات ينطلق من الذات نفسها، وبالتالي هي حالة من الإدراك الأنثوي حيث يدرك خلالها الموجود العناصر الثقافية والتاريخية والحضارية... المشكلة لهذه الذات.

فمصطلح الهوية إذاً في مختلف حدوده وأبعاده الفلسفية واللغوية، وفي المخيال العربي والغربي يمكن أن نحدده، على أنه مصطلح يعبر عن حالة منطقية معينة يؤكد خلالها الموجود قدرته عن تمييز ذات عينه عن ذات غيره، ليترتب عن هذا التمييز إدراكه للعناصر المميزة لأناه ومعرفته لمكمن اختلافه عن الآخر، ثم يعقد حالة صلح داخلي بينه وبين هذه الذات المدركة على أنها ذاته، فيقبلها كما هي مهما تهادت بها الظروف وتقلبت بها الأوضاع وأن تقبل نفسها وتقرّ وجودها بغض النظر عن ردود فعل الذوات الأخرى اتجاهها.

2- مفهوم الزنوجة:

يعتبر مصطلح الزنوجة مصطلحاً حديث النشأة يعبر به في عمومه عن مجموعة لونية معينة من البشر ذوي البشرة السوداء، غير أن هذا المصطلح لم ينشأ أساساً ليعبر عن الجماعة بل ليعبر عن حالة من الثورة ضد ما يعانيه السود من الاضطهاد والعبودية فمصطلح "الزنوجة Negritude استحدثه الشاعر مارتيسان Martican و "ايمي سيزار" Aime cesaire في باريس خلال الثلاثينات من القرن العشرين مع مجموعة من الطلاب أمثال "ليوبولد سنغور" Leopold sedor و"ليون دماس" وضعت في مجلة

¹ -أمين المعلوف، الهويات القاتلة، تر: نبيل محسن، دار النشر دمشق، ط1، 1999، ص: 13.

الطالب الأسود L'étudiant noir حيث أنهم استلهموا أفكارهم من حركات ثقافية فكرية في مقدمتها حركة نهضة هارلم Harle Renaissance " ¹

"فايمي سيزار" يعد أول من ابتدع مصطلح الزنوجة و"الزنوجة هي حركة وانتفاضة ضد سياسة الغرب وهي طلب الحرية والكرامة لشعوب القارة الإفريقية بما يشمله ذلك من اعتراف بقيمتهم الثقافية وإسهامهم الحضاري"².

فتيار الزنوجة حسب رأيه هو حراك سياسي وثورة، يهدف إلى رفض وتقويض سياسة الغرب ضد شعوب إفريقيا، والمطالبة بحقهم في تقرير مصيرهم، والاعتراف لهم بفضلهم في الوصول بالإنسانية إلى ما هي عليه من منجزات حضارية وثقافية.

بينما ينظر إليها "ليون جوب" باعتبارها وقفة فكرية ضد الحالة التي يعيش عليها السود في العالم، فهي تعبير عن الرغبة في المساواة وتحقيق الوحدة الإنسانية بين شعوب العالم يقول: "الزنوجة تهدف إلى وحدة إنسانية على أساس الإرث الثقافي والحضاري الإنساني بل إنها تتضمن التخلص من آثار المرحلة الاستعمارية عن طريق دحض كافة أبعاد الجهل بالحضارة والتاريخ الزنجي، وتقوم بالأساس على سمات الشخصية الإفريقية"³.

فهذا التيار بالنسبة "لجوب" هو حركة لتصحيح التاريخ، يقوم بمراجعة آثار فترة الاستعمار الأوربي لإفريقيا وإعادة تشكيل وبعث ما طمسته هذه الفترة من خصوصيات ثقافية، واجتماعية، وتراثية وتاريخية وحضارية... التي تميز الشخصية الإفريقية وثبتت إسهامها في بناء هرم الحضارة الإنسانية، فضلا عن ذلك فإنه من خلال هذا التيار يدرك

¹ - ايان لوو، العنصرية والتعصب العرقي من التمييز إلى الإبادة الجماعية، تر: عاطف معتمد وآخرون، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 2005، ص:71.

² - رزق عدلي مرزوق، الهوية الإفريقية في الفكر العربي السياسي الإفريقي، مكتبة عبد الملك عودة الإفريقية، 2005، ص: 285.

³ - نفسه، ص: 299.

الزنجي ذاته المتميزة المتفردة التي تميزه عن باقي الذوات الأخرى، فيعي بذلك انتماءه وهويته التي طمسها الرجل الأبيض.

فحركة الزنوجة لا يراد بها الدفاع عن حق الإنسان الأسود عينه بقدر ما يراد بها الدفاع عن الموروث الثقافي والحضاري والتاريخي لهذا الإنسان، وبالتالي فإن الزنوجة تتجاوز مجرد المطالبة بحق السود في معاملتهم معاملة إنسانية، تتصف بالاحترام والتقدير ومنحهم الحق في العمل والتنقل وحمايتهم بموجب مجموعة من القوانين والنظم الدولية، بل إنها تعنى في الأساس تعميم هذه القوانين لتشمل كل من الأفراد والبنىات الثقافية المميزة لهم، فلا يكفي أن نحى السود بل يجب علينا أن نحى مورثوهم الثقافي والحضاري الذي يشكل هويتهم.

ثانيا : البشرة السوداء ومعضلة العبودية:

1 - فترة ما قبل الإسلام:

فرضت الطبيعة الصحراوية للجزيرة العربية على العرب الارتباط مع مختلف الممالك المحيطة بهم بعلاقات تجارية، فكانت تبيع وتشتري من الأحباش والهنود والفرس والروم، فكانت تهادنهم أحيانا وتتصادم معهم أحيانا أخرى.

وكنتيجة طبيعية للحرب كانوا يحاربون فيأسرون فيستعبدون من يأسرون، ويستعبدونهم من يأسرهم، فضلا عن سوق الإماء والعبيد. وبالتالي فإن امتلاكهم للعبيد من مختلف الأمم أمر طبيعي في ذلك الزمن، كما أن الطبيعة القبلية للعرب فرضت عليهم نوعا من الاعتزاز بالذات والاعتداد بالأنا، فكانوا ينظرون إلى هؤلاء العبيد نظرة استصغار واحتقار.

فلو أردنا أن نقف على صورة احتقار السود في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام واضطهادهم فلن نجد مثالا خيرا من الشاعر "عنترة العبيسي"، فرغم أنه عربي الأب والدار فإنه تعرض للاستعباد لأن أمه أمة حبشية ولأنه أسود البشرة، فضل شبح العبودية

والعنصرية يطارده حتى عندما انتزع حرите بفروسيته وشعره، فلم يكن له أن يفخر بنسبه لأنه ليس بعربي صرف فيقول:

إني امرؤٌ من خيرِ عبسٍ منصباً *** شطري وأحمي سائري بالمنصل " 1

" فعنتره " يفخر بنسبه فيقول أنه من أكرم عبس منسباً، كيف لا وهو "ابن شداد" أحد سادة القبيلة وهو "عنتره" فارسها وشاعرها.

إلى هنا تستقم له غايته من الفخر والاعتزاز بنفسه، لكن بمجرد حمله السيف تتعكس له صورة وجهه فيتذكر أنه أسود وأنه ابن أمة، لكنه يستدرك هذا النقص فهو لن يضعفه لأنه سيحميه بمنصله (السيف) فهو دائم حاضر ليدافع عن نسبه وعرضه وكرامته وهويته.

2- العبودية في الإسلام:

جاءت الرسالة المحمدية لتختزل كل الرسائل السابقة لها، فتكون رسالة الإنسانية قاطبة، تمحي وتطمس كل معالم التفرقة العرقية واللونية والقبلية وتجعل من التقوى والقيم الإيمانية مقياس مطلق لقيمة الإنسان، مطهرة للنفس العربية أولاً والبشرية ثانياً، نابذة الطبقة محددة لمقياس واحد ووحيد للتفاضل وهو التقوى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (الحجرات الآية 13)

فالإسلام جاء ليمحو جميع الفوارق والعصبيات الجاهلية، فلا النسب، ولا اللغة ولا اللون يحدد الهوية والانتماء لقوله " .. أَلَا لَنَا فَضْلٌ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ " 2.

فهذا الحديث حجة دامغة على أن الإسلام أسقط كل العصبيات التي ترسخت وتجزرت في البيئة العربية قبل ظهور الإسلام.

1 - الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنتره، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1992، ص: 126.

2- الألباني، سلسله الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض مج 6، ط1، 1996 ص: 449 .

على الرغم من أن الإسلام قد حارب العصبية والعنصرية إلا أنه أبقى على نظام الرق الذي كان يبرره الجهاد المقدس وعليه فإن "المصدر الأساسي للرق في الإسلام هي الحروب التي قادها المسلمون ضد الدولتين البيزنطية والفارسية ورعاياها، فإذا أنتصر المسلمون على جيش معاد أو فتحوا بلدا من البلدان، أسروا رجاله وسبوا نساءه وأطفاله واقتسموا الأسرى والسبايا باعتبارهم غنائم حرب، وإذا كان الأسرى كثيرين بيعوا جملة، وقد بيع الأسرى إثر بعض الانتصارات بثمن بخس قد يصل إلى درهم واحد." ¹

فالقصد من الأسر والرق في الإسلام ليس بمقصد دنوي، بل له مقصد آخر ترتب عليه عدة منافع للإسلام فبأسرهم واسترقاقهم يتم كف أيديهم عن قتال المسلمين.

وبالمقابل ضمن الإسلام مجموعة من الحقوق للمستعبدين؛ كوجوب معاملتهم برفق ولين والإحسان إليهم، ويمكننا أن نستشف ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم: " ولقد أوصاني حبيبي جبرائيل بالرفق بالرفيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم" ² وقوله أيضا: " اتقوا الله فيما ملكت إيمانكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتهم فامسكوا وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله، ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم." ³ إلا أن ظاهرة الرق لم تكن خاضعة دائما للمقاييس الشرعية القائمة على العدل والإحسان والدعوة بالتي هي أحسن، بل عرفت في مراحل لاحقه بفعل التوسع في أقطار الدولة الإسلامية وشيوع الترف حالات من الممارسات التعسفية، فتعرض فيها العبيد أحيانا لمظالم سادتهم، حتى إن تلك الثورة التي حدثت في عهد الخلافة الإسلامية والتي ادعى بعضهم أنها ثوره زنجية تدافع عن حقوق السود، لم تكن كذلك بل إنها في حقيقة الأمر صورة لحركة شعوبية قادها رجل فارسي الأصل يدعى " علي بن محمد" الذي ادعى لنفسه أنه من العلويين "وقد اشتهروا بنقمتهم على

¹ - فيصل السامر، ثورة الزنوج، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط1، 1954، ص:19.

² - نفسه، ص: 20.

³ - نفسه، ص: 20.

السلطة القائمة واعتبارهم إياها مغتصبة جائزة بدليل ثوراتهم العديدة طوال العهد العباسي¹. وبالتالي فإن هذا الادعاء العلوي ماهو في حقيقة الأمر إلا ستارا وحجابا من أجل أن تكتسب ثورته الشرعية ويستقطب بها طبقة العبيد الذين وكما نعلم أنهم عانوا من الاضطهاد، فهذه الثورة إذاً هي ليست ثورة خالصة تدافع عن حقوق العبيد فقط بل هي ثوره أخلط عرقية وجنسية مختلفة "من غير السود كالأعراب وأهل القرى والعمال وأصحاب الحرف"². مما يرجح كون هذه الحركة الزنجية ما هي في حقيقة الأمر إلا ثورة مفتعلة قصد تقويض الدولة العباسية لأنها تقوم على أغراض عقديّة وسياسية أكثر مما تقوم على الدفاع عن حقوق العبيد، ولم تكن مشاركة السود فيها إلا من قبل كونهم وسيلة وخبداً أولاً وغطاء ومبرراً ثانياً .

العبودية إذاً قبل وخلال الإسلام هي منطق حرب، ورغم أن طريقة تعامل المسلمين مع العبيد أو الطريقة التي أوجب عليهم الإسلام أن يتعاملوا بها معهم تختلف عن تلك التي كانت قبل الإسلام، فليس لنا أن ننكر تعرض العبيد في مراحل مختلفة من حياة الدولة الإسلامية لبعض الظلم بفعل الممارسات اللا إنسانية ، ونقر أيضاً أن هذا الظلم ماقتى يزداد حدة كلما ابتعدنا عن زمن النبوة ويرجع ذلك إلى تراجع الوازع الديني في نفوس العرب والمسلمين أولاً، وبفعل عدم تخلص النفس العربية من الشعور الداخلي بنوع من الاضطهاد اتجاه السود، فرغم إسلامهم فإن اللاوعي الجمعي للعرب بقي يحتفظ بالصورة المشوهة للسود والسواد التي ورثها من الجاهلية ونلمس ذلك جلياً في احتجاج قوم "قيس بن الملوح" على حبه لليلي لأنها سوداء حبشية يقول:

وقالوا عنك سوداء حبشية
لولا سواد المسك ما انباع غالباً³

¹ - المرجع السابق ، ص: 49 - 50.

² -نفسه، ص: 71

³ - مريم مساعده، قيس بن الملوح، موقع موضوع ، آخر تحديث 27 اكتوبر 2017 www.mawdoo3.com

لتزداد هذه الصورة قتامة بانفتاح العالم الإسلامي على الحضارات الأخرى وتأثرهم بمعتقداتهم من جهة، والتراجع التدريجي والمتزايد للوازع الديني من جهة أخرى، ليصل هذا الظلم إلى ذروته في العصر الحديث بفعل ما عاناه السود من اضطهاد عالمي قادتته القوى الغربية الاستعمارية.

3- العبودية في العصر الحديث :

شكلت الحركة الزنجية في العصر الحديث قضية إنسانية مركزية، وذلك لأن المعاملة العنصرية والعرقية للزواج لم تعد كما كانت قديما ظاهرة يعاني منها الزوج المستعبدين والمتواجدين خارج حدود وطنهم الطبيعي، بل إن اضطهاد الزوج صار حالة عامة يعاني منها جميع السود عبر كامل أقطار العالم وذلك بفعل اجتياح المستعمر الأبيض الأوروبي للوطن الأصلي للزواج، فأصبح الرجل الأسود مستعبدا في داره ومنتهك الحقوق في وطنه، ومع اكتشاف القارة الجديدة ازدادت العبودية فأصبحت أزمة الزوج أزمة أمريكية افتعلها الوجود الأوروبي في المنطقة خلال حقبة من تاريخها "فإن سيطرة أوروبا على القارة الإفريقية بدأت بحركة الكشوفات الجغرافية التي قامت في أواخر القرن 15 حين بدأ الكثير من الأوروبيين يسافرون إلى خارج قارتهم بحثا عن الذهب والتجارة ومواقع الاستيطان ونشر المسيحية".¹

ولنكون منصفين يجب أن نقول أن الاضطهاد الذي عاناه الرجل الأسود في أمريكا ما هو في حقيقة الأمر إلا امتداد لنزعة التعالي والفوقية للرجل الأبيض الأوروبي على نظيره الأسود الإفريقي، وإذا أردنا تتبع فكرة العبودية والزوجة في العالم الحديث نجد أنها مرتبطة أساسا بمخلفات الاستعمار الأوروبي للعالم الجديد وسنقدم خلال هذا العنصر عينة فقط لأهم الأحداث التي ارتبطت بوجود العنصر الزنجي في "الوم أ" والذي كان

¹ - احمد إبراهيم دياب ، دراسات إفريقية ، مجله المركز الإسلامي الإفريقي في الخرطوم ، مارس 1979 ، العدد 4

- بدايته الرسمية مع "إدخال الإنجليز لأول دفعة من العبيد إلى فرجينيا سنة 1619 ثم تتابعت الأحداث المتعلقة بالعبيد في العالم الجديد وفقا لمجموعة من القوانين التالية :
- 1635: إنشاء فرنسا شركة الجزر الأمريكية التي بدأت بنقل العمال البيض بعقود إلى العالم الجديد ثم تحولت إلى نقل العبيد السود في فترة لاحقة.
- 1667: اعتراف البرلمان الانجليزي من خلال إقراره المعاملة القاسية للعبيد السود في المزارع بشرعيه العبودية الإفريقية.
- 1670 : مجلس الدولة الفرنسي يقر العبودية ويسمح بالمتاجرة بالعبيد السود في مستعمرات العالم الجديد.
- 1716: خرق فرنسا لقانون الأرض الفرنسية بحيث أنها تصدر مرسوما ملكيا يسمح بالاحتفاظ بالعبيد ووضعهم داخل الأراضي الفرنسية.
- 1738: دعم فرنسا لمرسوم 1716 بمنع زواج الأحرار بالعبيد وجعل عتقهم أكثر صعوبة.
- 1786 : "توماس كلاركسون" ينشر رسالته حول العبودية والمتاجرة بالجنس البشر وخاصة الأفارقة بلندن.
- 1793: في الولايات المتحدة الأمريكية نص "قانون العبد الفار" على أن فرار العبد يمثل جريمة فيدرالية.
- 1802: إقرار "تابليون" بعوده العبودية مع منعه الملونين من دخول فرنسا¹
- 1885: " تجديد منع ممارسة تجارة العبيد والدعوة إلى الالتزام بإيقافها في مؤتمر برلين.
- 1888: إعلان عتق العبيد في آخر دولة تحتفظ بنظام العبودية وهي البرازيل وإصدار

¹ - باتريسيا ديلبيانو، العبودية في العصر الحديث ، تر: أماني فوزي حبشي، هيئة أبو ضبي للسياحة والثقافة مشروع

البابا ليون الثالث عشر خطابا يمدح فيه عتق البرازيل لعبيدها ويشيد بجهود الكنيسة الكاثوليكية في تحقيق ذلك.¹

إن سرد القوانين والمواثيق بهذا الشكل يجعلنا نشعر حقا أننا كإنسانية قطعنا شوطا ذا بال نحو تحقيق تلك القيم التي لطالما افتخرنا بها وتغنيا بها وزعمنا أننا بها نسمو على مملكة الحيوان، ولكن الحق كل الحق هو أن عدد الأوراق التي كتبنا عليها مواثيقنا وسودنا بياضها بقوانيننا أكثر بكثير من القيم التي جسدناها على أرض الواقع، وان الكلمات التي رسفناها متجاوزة لنحجب بسواد مدادها زيف حقيقة الإنسان أطول بكثير من الطريق التي قطعناها نحو تحقيق إنسانيتنا، وحتى حينما دخل رجل أسود إلى البيت الأبيض ليقول الغرب وتزعم أمريكا أنها وصلت لقمة النزاهة وقمة المساواة وغاية العدالة، فإن هذه الصورة هي صورة مزيفة فلم تكن العدالة هي الغاية ولا النزاهة هي المبرر ولا المساواة في الحقوق هذه الوسيلة التي قضت بأن يكون الرئيس الرابع والأربعون "لوم أ" رجلا سودا ذا أصول إفريقية، يحمل اسما عربيا وسط اسمه، بل إن تمرس النظام الأمريكي والعالمي في لعبة التزييف هو الذي قضى بأن يكون "براك حسين أوباما" على رأس البيت الأبيض، فقد أراد النظام العالمي أن يجعل من سواد وجهه حجابا يحجب به الحقيقة كي لا تتجلي، ويستر به ملايين الظهور التي جلدت، وملايين القبور التي عرفت والتي ما عرفت قط، أراد أن يجعل من "حسين" الاسم العربي الذي يتوسط اسمه بلسما يداري به ألف "حسين" قتلهم في العراق وألف ألف "حسين" نكل بهم في فلسطين وألف ألف "حسين" سيختهم في بورما، فالسود وكل الأقليات في العالم رخيصة الدماء رخيصة الكرامة، يمحي وجودها، وتغتصب أوطانها وتطمس هويتها وتستعبد أفرادها وتأكل بغير عرض ثرواتها وبالتالي فإن كل ما كتبنا وما زيفنا من ديباجات قانونية وشرعية لم يستطع أن يمحو حقيقة ظلم الإنسان للإنسان فليست الأزمة أزمة تشريع وتقنين بل هي أزمة وجود.

¹ - المرجع السابق ص: 246- 247

الفصل الأول

أولاً: اللون وشروخ الهوية.

ثانياً - هوية الأنا واختلاف الآخر.

ثالثاً - العنصرية من خلال عدسة السينما.

تمهيد:

يحدد الانتماء الهوياتي للفرد أو الجماعة وفقا لمعايير تاريخية وثقافية وعرقية، تتضافر فيما بينها لتحديد الانتماء القومي للفرد، ويختلف تأثير هذه المحددات في مدى شعور هذا الأخير بالانتماء للجماعة، ليشمل العرق الذي نعنى به في أبسط مفاهيمه مجموع الخصائص الفيزيولوجيا التي تحدد التشكيل الجسماني للفرد، والذي يعدّ أكثر عناصر الهوية فاعلية في تحديد الشعور بالانتماء، إذ أن التباين بين الفرد والجماعة في باقي العناصر المشكلة للهوية - كالثقافة- يمكن أن تخفف حدته بإتباع سبل مختلفة ولا يمكن إدراك هذا التباين إلا في حالة التواصل والتحاور الفكري، فعلى سبيل المثال لو أن لسان الفرد يختلف عن لسان الجماعة فإن هذا الاختلاف لا يظهر إلا عند التحاور، لكن التباين في التشكيل الفيزيولوجي هو تباين يمكن إدراكه بمجرد النظر، ولا سبيل للخلاص منه أو إخفائه.

وهذا الاختلاف العرقي يوحى بنوع من الاختلاف الثقافي والحضاري مما يعيق عملية التواصل مع الأغيار ويجعلها صعبة، إذ أن كل طرف من أطراف المعادلة التواصلية ينظر للآخر على أنه مختلف، فالعين في هذه الحالة تهىء العقل للأحكام المسبقة وتجعله أكثر بعدا عن الموضوعية. ومن هنا أصبحت سنة الاختلاف اللوني التي اقتضتها حكمة الخالق بين مختلف أجناس البشر وأعرافهم تتحول تدريجيا إلى سبب في شعور الفرد أو مجموعة من الأفراد بالغرابة وعدم الانتماء بسبب وجودهم داخل مجتمعات تختلف عنهم في ألوانهم، فيشعر الأسود بالغرابة بين البيض ويشعر الأبيض بالغرابة بين السود وإن كان على دينهم ويشاركهم في نفس لغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

فرغم أن نقاط التوافق بينهم قد تكون عديدة ونقطة الاختلاف واحدة إلا أن الشعور بالغرابة وعدم الانتماء يبقى حاضرا لأنه وبكل بساطة كلما نظر إلى انعكاس صورته في عيون من حوله سيشعر أن نظراتهم تقول له: "أنت مختلف"، وكثيرا ما ينتهي هذا الشعور بالغرابة إلى حالة من رفض الذات بعد رفض قبول الانتماء إلى الجماعة ليتولد ما

يعرف بالشرخ في الهوية، فإذا كانت الجماعة هي الخيمة التي يأوي إليها الإنسان لتقيه من حر ظلم الأنساق المتجذرة عبر التاريخ، فإن الشعور بعدم الانتماء يحدث في سقف هذه الخيمة شرخا ينفذ منه نوع مقيت من التصدع والانفصام.

ولما كان للبناء الفيزيولوجي وخاصة للون أثر مهم وواضح على الانتماء الهوياتي لدى الفرد والجماعة، رأينا أن نتتبع خلال هذا المبحث أثر الاختلاف في البنية واللون على الشعور بالانتماء عند الزوج، وكيف يساهم هذا الاختلاف في إحداث شرخ وتشظي هوياتي عندهم، منطلقين في ذلك من أثر اللون كنسق ثقافي على اللاوعي الجمعي وتحديد صورة الزوج فيه وذلك من خلال ربط هذا النسق الثقافي بالجمال القيمي والجمال الصوري، ثم الوقوف على أثر التشكيل الفيزيولوجي للزوج ومدى تأثيره على صورتهم سلبا وإيجابا، لنقف بعدها على ما أحدثه اللون من انشراح هوياتي لدى الزوج في الرواية كإنموذج للبحث.

أولا: اللون وشروخ الهوية

1-1- التأميل لثنائية السواد والبياض في الثقافة الإنسانية:

تعتبر ثنائية السواد والبياض، من أكثر الثنائيات اللونية حضورا في مختلف الأنساق الثقافية عبر التاريخ الإنساني، وقد قامت المفاضلة بين هذين اللونين في أغلب المجتمعات والثقافات والعقائد على أساس تفضيل الأبيض على الأسود، إذ اقترن السواد بداية بالتشاؤم والحزن وقوى الشر والجن والغيلان وغضب الآلهة عند الشعوب القديمة "فالخطيئة دائما سوداء والشر يكتسب سواده من تقابله مع الخير والنور، وجهنم سوداء وأهلها سود"¹ ليتحول بعد ذلك فيقترن بالعبودية والرق في عصور لاحقة دون أن تتفك عند دلالاته السابقة، كما اقترن السواد في رمزيته بالمعصية والحقد وفساد الأخلاق والدنس وأهل العذاب والجحيم في الديانات السماوية وبالأخص في ديننا الإسلام، بينما اقترنت رمزية

¹ - نادر كاظم، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص: 146

البياض بالصور والدلالات المقابلة لكل الصور السابقة، وبالمقابل وعلي الرغم من تفضيل البياض على السواد الذي كان سمة غالبية ومهيمنة في مختلف الثقافات، إلا أن هذا لا ينفى تفضيل السواد على البياض ودم البياض واستقباحه، في حالة يصبح فيها السواد رمزا للقوة والغموض الجذاب في أثواب الملوك، ورمزا لوفاء المحب وإخلاصه في أثواب الحداد، ورمزا للمسك وعبيره وسمة للجمال في الشعر والعين وصورة للفخامة في رايته **صلى الله عليه وسلم** ، ودلالة عن الطهارة والعفة وتعبيرا عن التبتل، والزهد عند الرهبان وإشارة إلى القداسة في كساء الكعبة وحجرها، بينما يأخذ البياض دلالة المرض في البرص ودلالة الموت في الكفن.

لكن حين نتساءل من أين اكتسب كل من السواد والبياض رمزيته الأولى التي كانت النواة لاقتران كل منهما بتلك الدلالات، فإننا نعتقد أن رمزية السواد والبياض في كل الثقافات هي مرتبطة أساسا "بظواهر كونه كالليل والنهار أو بأحداث وكائنات تبعث التشاؤم كالغراب"¹ فقبل أن يكتشف الإنسان النهار كان الليل يعني العتمة والخوف وغياب الأمن، لأن الإنسان الذي يكون سيذا في النهار بما يأتي من حيل يصطاد بها الوحوش والحيوانات يصبح عاجزا تماما في الليل، حيث لا يرى ما حوله ويصبح مجردا من كل وسائل الدفاع عن نفسه، مما يخلق لديه حسا بالخوف من سواد هذا الليل وحنينا إلى بياض النهار، هذا الحنين يتحول إلى حب لكل بياض، وذلك الخوف يتحول مع الزمن إلى شعور بالعداء تجاه كل سواد، وهكذا تسلل هذا الشعور إلى الثقافة والعادات وترسخ عميقا في لا وعينا، و تسلل لينمط نظرتنا للجمال.

¹ - المرجع السابق، ص: 146

1- 2- الدين والقيم ورمزية السواد والبياض:

انتقلت دلالة الخوف التي أكتسبها اللون الأسود من عتمة الليل، ودلالة البياض التي أخذها من نور النهار عبر العصور إلى ثقافة الشعوب وعقائدها، فأصبح السواد رمزاً للشر والظلم، ثم انتقلت هذه الدلالة الرمزية في الديانات الوضعية عند أغلب الشعوب لتلتصق بقوى الشر والسحر والشياطين، ليكتسب السواد في مرحلة لاحقة رمزية عامة يمكن أن تكون مسلمة وهي الدلالة على كل شرّ وعلى كل استقباح؛ فالشر أسود والخير أبيض، والباطل أسود والحق أبيض، والعدل أبيض والظلم أسود، والملاك أبيض والشيطان أسود، وبالتالي نجد أن البياض اقترن بكل مريح ومستحسن من الأفعال والأخلاق ليقترن بالمقابل السواد بكل قبيح ومستهجن منها .

جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107)** "سورة آل عمران الآية 106-107).

والمراد بتسود أي تظلم وتكتئب وتبتئس وليس المراد حقيقة السواد اللوني غالباً، والمراد تبيض أي يشع نورها ويسطع وليس المراد البياض الذي تدل عليه حقيقة اللون، فليس كل بياض مستحب ولا كل سواد بمستهجن، فالسواد ثوب الكعبة وأشرف أحجارها، ولون راية الإسلام والمسلمين، وربما دلالة على السطوة التي جعلته صلى الله عليه وسلم يختاره لونا لراياته ليظهر عزه الإسلام، وجعلته يحث على لبس الأبيض كعلامة على التواضع لله، قال صلى الله عليه وسلم " ليس من لباسكم أحسن من البياض فالبسوه وكفنوا به موتاكم"¹، فالحث على البياض حث على الصفاء والتواضع والنهي عن التكبر، وهذا إلماح إلي أن الإنسان إن كان أكثر لباسه بلون كفته فإنه لا يزال يذكر الآخرة دائماً

¹ - المرجع السابق، ص: 153.

ويعلم أن هذه الدنيا فانية وتلك باقية، فيحمله ذلك على خصال الخير ويصده عن خصال الشر وينزع الكبر من نفسه وهو ما يتوافق مع قول **علي رضي الله عنه** "لا تلبسوا السواد فإنه لباس فرعون"¹، يريد به لباس المتكبرين.

فدم السواد في الديانات السماوية ليس من قبل ذم اللون في حد ذاته وتفضيل البياض ليس من قبل تفضيله لذاته، بل هو ذم واستحسان لما يحيل إليه كل منهما من دلالات رمزية كانت موجودة في المخيال الإنساني، ليستثمر الدين هذه الدلالة قصد تحقيق التأثير المرجو من الرسائل السماوية.

ولكن لفيف من البشر استعمل هذه النصوص من التوراة والإنجيل والقرآن بغير معانيها ودلالاتها السلمية لتكريس العنصرية خاصة عند أهل الكتاب حيث ذهب **"كافيه رايلي"** "إلى القول بأن الرمزية المسيحية عن البياض والسواد كانت خليفة... بأن تشجع موقفا اتجاه السواد، فقد اعتقد المسيحيون أن الخطيئة هي اسوداد الروح البيضاء، ونظروا إلى الله والفضيلة والطهارة والتوبة من خلال النور أو البياض المشرق"².

فالدين لا ينصّ على أن سواد الروح هو سواد للبدن بل إن سواد الروح وبياضها يأتيان من قبل صلاح العمل وفساده، فسواد البدن الذي يولد مع المولود لا يعنى سواد روحه وقلبه، وبالتالي فهذا لا يعطينا الحق في جعل اللون مبررا للعبودية التي هي ليست من مقاصد الشرائع التي جاءت من أجل إقرار العدل والمساواة. بل نصت صراحة على أن اختلاف الألسن والألوان قضته حكمة الله ليتأمل المخلوق في قدرة الخالق فيكون هذا الاختلاف وسيلة للهداية، قال سبحانه وتعالى: **"وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ"** (سورة آل عمران الآية 22).

فرمزية السواد في الدين والقيم هي ليست رمزية انتقلت من الدين إلى غيره من الأنساق الثقافية وإنما هي لرمزية ثقافية كرسها الدين لتحقيق الغاية من الرسالة الربانية.

¹ - المرجع سابق، ص: 153 .

² - نفسه، ص: 146

1-3- الزوج البناء الفيزيولوجي ومعايير الجمال:

رغم أن الشعور بالجمال والقبح سمة إنسانية عامة يشترك في إدراكها جميع البشر، فإن الحكم بالجمال أو القبح يرتبط بالذائقة الفردية التي يتبناها شخص ما، فهو قيمة مختلف فيها، وبالتالي فإنه من غير الممكن أن نصوغ قوالب ثابتة في الحكم الجمالي، إذ لا وجود لآلية تمكنا من توحيد معايير الجمال بين مختلف الأشكال الفنية والمادية، وهذا ما يزيد محاولتنا لدراسة الجمال تعقيدا ويزيد مبررات أحكامنا غموضا، كما أن الحكم بالقبح والجمال قد يصدر من ذات الجهة على قيمة واحدة تتجسد في صورتين فتحكم عليها بالجمال في إحدى هاتين الصورتين وتحكم عليها بالقبح في الصورة الأخرى، وتستند في كلا الحكمين إلى نفس المرجعيات "نفس الإرث الثقافي... الذي اعتاد أن يلبس الأسود ويعتبره ملك الألوان... اعتاد أن يسلب الأرواح السوداء ملكها ويستعبد لها وينبذها ويسلبها الحياة."¹

وبالتالي فإن إدراك الفهم الجمالي وفهم الجمال في العالم الطبيعي والعالم الإبداعي يبقى عملية معقدة إذ لا وجود لوحدة محددة للحكم الجمالي، فنبقى دائما نبحث عن جواب لسؤال دون جدوى مفاده: ماهي الصفات التي تمتلكها الأشياء لنحكم عليها بالجمال وهل هناك صفات من الممكن إثباتها بالبرهان كصفات محددة لهوية الجمال؟

ولما كانت محاولة صياغة معايير عامة تحكم الجمال كظاهرة إنسانية، لم تكن في حقيقة الأمر إلا محاولة عابثة، بسبب التداخل في تحديد الجمال بين الوعي واللاوعي، أو بين النسق الثقافي المغيب والنسق الثقافي المدرك، فإننا سنقدم لجمالية السواد الزنجي والبياض من خلال أكثر من منجز إنساني تتداخل فيه الفكرة الواعية مع الفكرة اللاواعية، من خلال الأدب، فالوقوف على تجليات جمالية السواد والبياض في المنجز الأدبي لا يحتاج إلى كثير من الجهد، فيكفي أن نقلب في صفحات الأدب لنجد أن السواد كصفة

¹ - سعداء الدعاس، لأني أسود، RAYAHeen، ط1، 2010، ص : 2 .

لصيقة بالإنسان اقترنت بمجموعة من الأحكام المسايرة له، وهي القوة الجسدية والقدرة الجنسية.

١- السواد بين القبح والجمال:

إن المفاضلة بين السواد والبياض مثلت سمة بارزة في الشعر العربي القديم، حيث اقترن السواد من جهة بالعيون الجميلة وسطوة الليل، ومن جهة أخرى كان السواد صورة للدنس والمعصية وفساد السريرة، وفي الوقت نفسه أخذ البياض من جهة صفة الطهر والنورانية ومن جهة أخرى حمل دلالة الموت والمرض والشيب الذي هو صورة للهرم، وعلى هذا الأساس فاضل العرب بين السود والبيض منطلقين من الصورة الرمزية الموجودة في الثقافة ليعمموا أحكامها على الإنسان، ومن ذلك ما حكى عن "الحجاج بن يوسف الثقفي" أنه "اشتري عبيدين أحدهما أسود والأخر أبيض وأمرهما بأن يمدح كل منهما لونه ويذم لون صاحبه فقال الأسود:

ألم تر أن سواد المسك لا شيء مثله *** وأن بياض اللفت حمل بدرهم.

وأن سواد العين لا شك نورها *** وأن بياض العين لا شيء فاعلم".¹

فقد استعمل سواد المسك وسواد العين لتدليل على مكان الجمال في السواد، بينما حاول تشويه صورة البياض من خلال تمثيله باللفت، ومن خلال إقراره بالعمى وذهاب البصر في حالة تجليه في العين، وبالمقابل يستعين العبد الأبيض موظفا النص الديني متأولا قوله عز وجل: (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) أن سود الوجوه هم أهل الجحيم وان سوادهم دلالة على فساد سرائرهم وذنس بوطنهم حتى مثلهم بالفحم فقال :

"ألم تر أن نور البدر لا شيء مثله *** وأن سواد الفحم حمل بدرهم.

وأن أهل الله بيض وجوههم *** وأن سود الوجوه لا شك أهل جهنم".²

وبعيدا عن الحجاج، وفي مقام آخر، فقد استحسنت العرب قتامة السواد في المرأة في ثلاث مواضع هي: سواد الشعر، وسواد الهدب لأنها ملحقة بالشعر وسواد مقلة العين.

¹ - شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، دار المعارف لبنان، ط5، 2008، ص: 425.

² - نفسه، ص: 425.

وتستحب من ناحية البياض في ثلاث مواضع وهي صفاء بياض العين، وشفاء بياض الوجه، وشفاء بياض النحر، حتى شبهوا من اشتدّ سواد عينها بالريم والضباء، ومن اجتمع فيهم صفاء بياض العين وبياض الوجه مع قتامة سود العين والشعر بالحوار العين قال: "مجاهد" والحواراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وشفاء اللون ويستحب فيها صفاء البياض منها في ثلاث مواضع في العين والوجه والنحر ويستحب السواد فيها في عينيها وشعرها".¹

وقال "أبو عمرو" "الحوار أن تسود العين كلها مثل عين الضباء وليس في بني آدم حوار وإنما قيل للنساء حوار عين لأنهن تشبهن بالضباء".²

وها هو السواد يزيد الحسناء حسنا حين يصبح شعارا للعفة والطهر الساتر، وغلافا للحسن والجمال الفاتن وسهما للعشق القاتل مع "ربيعة بن عمرو التميمي" وهو يقول:

"قل للمليحة في الخمار الأسود *** ماذا فعلت بالزاهد المتعبد

قد شمر للصلاة إزاره *** حتى قعدت له بباب المسجد

ردي عليه صلاته وصيامه *** لا تقتليه بحق دين محمد".³

وما زال التغني بعيون الطبي وتشبيه عين المرأة بها من خصائص الأدب العربي إلى عصرنا هذا حيث يقول "تميم البرغوثي" في قصيدته "البردة" مبينا انتقال هذا المعنى من شعر المتقدمين إلى شعر المتأخرين يقول:

قل للقدامى عيون الطبي تأسرهم مازال يفعل فينا الطبي ما عهدا"⁴

¹ مجدي فتحي السيد، مطالع البدور مع منازل السرور في وصف حوار العين نساء أهل الجنة، دار الصحابة للتراث، ط3، 1994، ص: 13 .

² نفسه، ص: 13.

³ - عصام نور الدين، الإعلان وتأثيره في اللغة العربية، مجمع اللغة العربية، شبكة الألوكة، ص: 823
www.alukah.net

⁴ - تميم البرغوثي، البردة، بوابه الشروق، آخر تحديث 18 يناير 2013 www.shorouk news.com

ب- السود بين القوة الجسدية والقدرة الجنسية:

تنتم النظرية إلى السواد عموماً بالاحتقار والذم والقبح، ويعود هذا أساساً للبناء الفيزيولوجي للزنجي إذ يتسم الزنجي بأنه "مستطيل الوجه شديد بروز الفكين مع ضمور في الذقن، أنفه أفطس واسع المنخرين وشفته غليظتان وأسنانه كبيرة، وهو بسيط الجمجمة طويل الذراعين"¹، كما أنه عريض الصدر قوي البنية شديد التحمل، ويعود ذلك إلى البيئة التي يعيش فيها، فالبيئة الطبيعية للزنجي هي صحراء إفريقيا وقسوة البيئة هي التي حملت أجسادهم على التكيف معها، لتسهل عليهم العيش في بيئة صحراوية قاسية، فالعواصف والحرارة كثيراً ما تجعل الهواء مفعم بالغبار والأتربة مما يصعب التنفس، وهو ما يبرر اتساع المنخرين، كما أن الطبيعة الصحراوية وما يوجد بها من أدغال وبراري يصعب فيها التنقل والحركة، مما ساهم في تطور عضلات الجسم ونموها، رغم ما عناه الزنجي في إفريقيا خلال العقود الأخيرة من فقر وجوع وحرب وتواجد أجنبي واستعباد؛ فإن أبدانهم في الظروف الطبيعية قوية جداً وهذه القوة البدنية التي يتميز بها الزنجي قد ساهمت في تخفيف استهجانه، خاصة عند المرأة الغربية البيضاء التي ربطت بين القوة الجسدية والقوة الجنسية، فأصبح اتخاذ المرأة البيضاء لشريك أسود أمراً شائعاً ويعود ذلك أساساً إلى الصورة التي كرستها السينما الغربية عن فحولة الأفارقة وشهوانية الأفريقيات وقد تبنت الكاتبة "سعداء الدعاس" هذه الفكرة وهي تقول: "الصبي الأسود عادة ما يحالفه الحظ في علاقته باللون الآخر، حتى يصبح هدفاً لنساء شرهات تشربن مفاهيمهن الجنسية من الأفلام التي لا تتفك تصور الأسود الأكثر شراهة ومتعة"².

ومع أن فكرة الربط بين الزنجي والقدرة الجنسية قد عرفت انتشاراً واسعاً في عصر تقشت فيه تجارة الجسد بصورة مختلفة عن تلك التي كانت تمارس بها داخل المواخير، فأصبحت تمارس عن طريق الوسائط التي تقدمها كل من السينما والكتابة الجنسية، لكن

¹ - عباس محمود العقاد، داعي السماء، بلال بن رباح، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، ص: 41.

² - سعداء الدعاس: لأني أسود، ص: 8.

ميلاد هذه الفكرة ليس وليد السينما والكتابة الحديثة، بل كانت هذه الفكرة موجودة في تراثنا الأدبي رغم الطابع المحافظ الذي التزمه الأدب العربي بفعل الدين والأعراف، حيث نجد الإشارة لفكرة القدرة الجنسية لدى العبيد تظهر بطريقة غير مباشرة، ففي كتاب "ألف ليلة وليلة" مثلا تفتتح - قصه المفتوح - بالإشارة إلى هذه الفكرة حيث يرى "شاه زمان" أخو الملك "شهريار" زوجته الأميرة وجواربها يواقن مجموعة من العبيد ثم يتكرر نفس الأمر مع زوجة الملك "شهريار" وجواربها وبين عبيد الملك¹ مما يجعل القارئ يتساءل عن الشيء الذي يمكن أن يدفع بملكة إلى المجازفة بملكها، من خلال خيانة زوجها السلطان مع العبيد لا هي لهم عاشقة ولا بهم عالقة، فلما تتخلى عن ملكها وتتنازل عن سؤدد الملك حتى تراود عبدا أسودا عن نفسه وتمكنه من شرفها؟ ولما تتكرر نفس الفكرة مع الملك والأمير؟

لنتفد إلى الإقرار بأن الشهوة هي المبرر الوحيد لهذا التصرف

1-4- هاجس اللون الأسود في عالم البيض :

إن السواد في الثقافة العربية كان سمة للجمال مرة وللقبح مرة، فرغم أنه كان عندهم علامة للشؤم والشر والدنس إلا أن ذلك لم يمنعهم من التغني بجماله في مواطن عديدة، غير أن السواد حين يتعلق بقضية الزنوجة يتحول للإشارة المطلقة إلى العبودية، ولعل سنين الاضطهاد الطويلة التي عاشها الزنوج جعلت العالم يقر بثنائية التلازم بين اللون والعبودية، فيصير كل أسود عبدا، وكل عبد لا بد أن يكون أسود، وتغلغلت هذه الصورة لتتبنى فكريا وثقافيا لتسود خلال فتره طويلة من تاريخ الشعوب ، فمثلا لو نسأل عن صفات العبيد فستكون أول صفة يذكرها هي السواد، وهذا الربط بين السواد والعبودية انتقل لهذا العصر عبر الثقافة الشعبية والمنجز الأدبي لأغلب الأمم. فمثلا "شعب البامبارا مع كونه من العرق الأسود فإنه يعتبر اله الخير والسمو ينتمي إلى البياض، في حين

¹ - ينظر: ألف ليلة وليلة، المكتبة السعيدية، الأزهر، مصر، ط1، مج1، 1935، ص: 2-3.

تنتمي آلهة الشر التي تلوث العالم إلى السواد... إذ يعتقد هذا الشعب أن إله الخير الأكبر والذي يسمونه فاروا له رأس امرأة بيضاء.¹

كذلك أثنى وروج الأدب الشعبي لهذا النوع من التلازم بين العبودية والسواد ففي قصة "علي أممي" "حين يعاقب الملك زوجته على إنجابها لجر و كلب وفرخ غراب، قضى بأن تصير "أمة" فألقاها في بئر يظهر كثيرا في القصة الشعبية الجزائرية حيث إذا وضع فيها الأبيض الحر يتغير لونه ويصبح أسود ، وليبالغ في تسويدها أمر بعد إخراجها من البئر بأن تظلى أطرافها بمادة القطران أو الكذران كما يسمى في اللهجة المحلية ، وحين انتبه لمكيدة زوجاته ويعود ابنه فيقرر إعادتها إلى سابق عهدها وتعينها سلطنة القصر الملكي فيلقبها في بئر الأحرار وهي بئر يلقى فيها العبيد السود".* فكأنه لا يمكن أن يكون العبد حرا إلا إذا كان أبيضاً، ولا يمكن أن يعتق من عبوديته إلا إذا اعتق من سواد بدنه، فهاته الحتمية المتصورة بين السواد والعبودية ولدت للسود شعورا عميقا برفض الذات. ففي المثال السابق عن شعب البامبارا علامة واضحة على هذا الرفض للذات.

إن معضلة الشرخ الهوياتي الذي يعانیه الزنوج بمختلف قبائلهم وعقائدهم وأوطانهم، هو الثيمة التي بنت عليها الكاتبة "سعداء الدعاس" رواية "لأني أسود" إذ منذ البدء يعلن الألم:

¹ - نادر كاظم، تمثالات الآخر ص: 147 .

* - قصة علي أممي قصة شعبية تنتمي إلى التراث الشاوي وتحكي عن ملك كان في الهلالية وكان متزوج من ثلاث نساء وعدته كل منهم وعد فوعده زوجته الأولى بأن تصنع له زاد من حبة قمح واحدة، والثانية أن تصنع له برنوس (لباس تقليدي مشهور في مناطق الشاوية). وقالت الثالثة أنجب لك طفلا نصفه ذهب ونصفه فضة ، وحققت هذه وعدة فغارت ضرائرها وكدن لها فسرقن ولدها والقينه في الفحم ووضع بدلا عنه جر و غراب ولما سمع الملك ألقى بها في بئر العبيد.

"أنت تجهل معنى أن تكون أسودا...معنى أن يكون لونك مصدرا لإهانتك... هذه هويتي...هل تقبل بها أنت؟....هل تقبل أن تعرف بالعبء؟".¹ هذه العبارة وحدها تكفي لإظهار مدى رفض الذات عند "جوان"، حين تصبح الذات تحتقر ذاتها وتعبّر عنه صراحة وتبحث عن مبررات وهي تسأل "هذه هويتي... هل تقبل بها أنت؟"²، فسؤال الآخر هنا عما إذا كان يقبل أن يكون غيره في نفس وضعه، إنما هو وبلا شك إعلان لرفض الذات، ثم يزداد هذا الرفض وضوحا وترسخا حين تقول: "هل تقبل أن تعرف بالعبء؟"³.

وهنا يصبح سوادها وسيلة تستدل بها على نظرة الآخر إليها فهي قبل أن ينظر إليها أحد على أنها عبدة فإنها تنتظر منه هذه النظرة، فالربط بين العبودية والسواد لم يعد حكرا على البيض وحدهم بل انتقل إلى السود أنفسهم ليتضح لاحقا أن هذا الرفض للذات كان أول كلمة سمعتها في حياتها حين تتذكر قول والدتها وهي حبلى "كوني أقل سوادا أرجوك"⁴، فأكد أن ما تزخر به نفس الأم من مشاعر وأحاسيس خلال فترة الولادة لاحقا سيؤثر بطريقة ما على التكوين النفسي للطفل، فوالدة "جوان" كانت تهيئها لرفض ذاتها منذ أن كانت في أحشائها بل وصل هذا الرفض للذات إلى إنهاء علاقتها بحبيبها "تويتش" "لأنها كانت تحلم بفارس وسيم وبيبشرة أقل سوادا"⁵ فنجاحه كمدرس في الجامعة برتبة مساعد بروفسور وقدرته على توفير مستقبل راق لها، لم يكفر عنه خطيئة السواد فرغم هذا الحب إلا أنها بقيت ترفضه في أعماق نفسها لأنه يحمل سمة لا يمكن أن تحبها بالرغم من مشاركتها له فيها إنها جريمة السواد، فكأن "جوان" تتصور أن الرجل الأبيض حين يتزوج امرأة بيضاء سينجبان قطعه من الشمس الساطع لا تستطيع الأبصار أن تجترئ عليها، والرجل الأسود حين يتزوج من امرأة سوداء فإنهما سينجبان قطعه من الفحم

1 - سعداء الدعاس، لأنني أسود، ص:3.

2 - نفسه، ص:4.

3 - نفسه، ص:4.

4 - نفسه، ص:7.

5 - نفسه، ص:20.

القائم، وليل معتم لا نجم فيه، وإنه لمن الحكمة أن يتزوج البياض من السواد ليخفف البياض من عتمه السواد وظلمته، ويخفف السواد من سطوع البياض وتوهجه، هكذا أثنت "جوان" أفكارها وهي تصرّ "على البحث عن مشروعها الهجين الذي يتمثل مع السود ويختلف عنهم ببشره اقل سواداً"¹.

لكن السواد المحمول على البشرية لم يكن الهاجس الوحيد "لجوان" بل هو هاجس تشكّل من الرغبة والحلم بالقدرة على تجاوز حي السود فهي ترى أنه لن يتحقق لها أبدأ، فصارت تحلم به لطفلها الذي تتمنى أن يكون أقل سواداً، لأن لونها القائم يمنعها من الخروج ويمنع جميع أبناء جلدتها أيضاً فتسأل أختها "نتاشا" التي تحاول أن تقنعها أن لونها لن يتسبب في اضطهادها وهي تقول رداً على مشروعها الهجين: "نتاشا" تقول "لجوان" "نحن في شيكاغو يا عزيزتي لما سيعانى ابنك المستقبلي من مشاكل العنصرية"² هذا الكلام يجعلنا نشعر أن "نتاشا" على الأقل تشعر أن شيكاغو تلك المدينة التي تستقبل كل العقائد واللغات والثقافات، أكبر من أن تتوقف عند اللون، لكن "نتاشا" نفسها لم تكن مقتنعة بهذه الفكرة وهي تجيب عن سؤال "جوان" "هل تعرفين أين سنقضين بقية حياتك؟ فتجيبها نعم أعرف، هنا نفس الولاية... نفس الحي أيضاً قد أنقل من منزلنا لكن لن أبتعد بالتأكيد"³، فهذه المدينة التي قدمتها لنا منذ قليل على أنها لا تعرف العنصرية وتقبل الجميع قد حكمت عليها بأن تعيش في سجن الحي والمدينة، إنها فقط حرية قد تعطينا حرية أكثر بقليل من حرية السجناء والمجرمين لكن مع شعور أعمق بالأسر الذي لن نتحرر منه، وشعور أعمق بالعجز لأنها حرة، لكن لا تستطيع الخروج من حدود حياها الأسود.

¹ -المرجع السابق ، ص : 22

² - نفسه ، ص: 19

³ - نفسه، ص: 19.

هذا السجن الذي أغلق على السواد، هو سجن رضوا به، ويتضح ذلك من خلال قول الكاتبة: "أثناء إقامتها في شيكاغو أيقن "فوزي" أن "جوان" أسيرة عرقها ولن تستطيع أن تتجاوزته في ظل انغلاقها التام على لونها"¹. فرغم أن الفرار من قتامة اللون والحصول على قدر من الحرية كان حلم "جوان" إلا أنها أبدا لم تتجرأ على محاولة تحقيقه بل كانت منغلقة في علاقاتها على السود وفي تناقلاتها على حي السود، وحتى "تاشا" التي تظهر أكثر توافقا مع ذاتها تخضع لنظام السجن وتقره وتؤمن باستحالة تجاوزه وهي تقول ردا على "فوزي" في الانتقال من حي السود إلى حي البيض " لن تصبحا منهم وأن اخترقتما كيانهم"²، هذا الرفض للذات تحول مع طفل "جوان" إلى حالة من التقرز من ذاته حين حاول أن يتخلص من سواده عن طريق النظافة وتصور أن السواد معناه الدنس والقذارة وأنه يكفيه أن يستحم ليصبح نظيفا أبيضاً يقول: "بدأت بنزع ثيابي وعقلي يكرر لا بد أن أصبح نظيفا... قضيت ثلاث ساعات وأنا أستحم... وكلما نظرت إلى المرأة عرفت إنني أحتاج إلى أيام لأصبح نظيفا"³. وعندما تنتبه أمه للوقت تشرح له أن لونه لا يمكن أن يتغير وأنه لا يمكنه أن يكون نظيفا كأصدقائه لأنه نظيف مثلها. إلا أنه يعلن: "أرغب أن أصبح نظيفا مثلهم لا مثلك"⁴.

ثانيا - هوية الأنا واختلاف الآخر :

عقدة حب الأنا وعداء الآخر عقدة تاريخية ولدت مع الإنسان وتجلت هذه العقدة - التي تصور حب الذات حبا جشعا أنانيا والانتصار لها في المواطن كلها، ورفض الآخر واستهجانها في المواطن ذاتها حتى في المواطن التي يكون فيها خادما للأنا - لأول مرة في التاريخ الإنساني مع " قابيل "ابن آدم" عليه السلام حين عبّر صراحة على رفضه لوجود أخيه حين قال له لأقتلنك، كما أثبتته محكم التنزيل في سورة المائدة: " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ

1 - المرجع السابق، ص:102.

2 - نفسه ، ص:103.

3 - نفسه ، ص:108.

4 - نفسه ، ص:109.

نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتَتَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ". (سوره المائدة الآية 27) وهنا يكون الشعور بتفوق الآخر دافعا لرفضه، لتتكرر ذات القصة مع "يوسف" عليه السلام وإخوته وهم يقولون: "يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أُبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ". (سوره يوسف الآية 8-9) وهنا ينبع الرفض من الشعور بدونية الأنا بمقابل الآخر أو الهو حين يحتل مكانا تشعر أو تظن الأنا بأنها أحق به، وفي مثال آخر يكون الرفض بشكل مختلف حيث ترفض جماعة جماعة أخرى بسبب التباين في المنظومة القيمية أو الدينية مثلما صورته المولى عز وجل في حديثه عن اليهود والنصارى: " وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِيَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى" (سورة البقرة الآية 111)، على أن إيراد هذه الأمثلة من القصص الديني نأتي به لنبين أشكال الرفض التي يمكن أن تكون بين الأنا والآخر في بعض صورها - بحيث يمكن أن تتجلى في شكل رفض فرد لفرد، أو جماعة لفرد، أو جماعة لجماعة- وفي كل الأحوال فإن الرفض يكرس جميع الطرق والسبل لرفض الآخر، و يستند فيها إلى حجج تتغير بتغير اللحظة التاريخية والظروف الحضارية، لكنها تبقى تهدف لذات الغاية وهي تكريس التراتبية بين أفراد الجماعة الواحدة، وللجماعات داخل بناء الإنسانية، فالمنطق الذي ادعى به كل من اليهود والنصارى الحق في استعباد غيرهم يوم كان الدين هو أساس ومركز للعلاقات السياسية والثقافية والحضارية في العالم، هو نفسه المنطق الذي غزت به دول أوروبا بالأمس قارتي إفريقيا وأمريكا واستعبدت شعوبها وقتلتهم باسم نشر الحضارة، وهو نفسه المنطق الذي اجتاحت به اليوم أمريكا العالم واستعبدت الشعوب باسم الحرب على الإرهاب.

لنقول أن سعي الإنسان لتحقيق الهيمنة على الآخر واستعباده لم يتوقف على مر التاريخ الإنساني إنما فقط تغيرت سبله ووسائله ومبرراته بتغير اللحظة التاريخية والأوضاع السياسية التي حكمت العالم، ورغم كل محاولات العالم والمنظمات الدولية للوصول إلى تحقيق حالة من الوحدة الإنسانية حيث يكون انتساب الفرد للإنسانية أقوى من انتسابه لقبيلته أو وطنه أو جماعته، إلا أننا في كل مرة نجد أنفسنا أمام السؤال

الساخر الذي طرحه "مونتيسيكو" في كتابه "رسائل فارسية" حول كيف يمكن للفرد الباريسي أن يتجاوز النظر إلى العالم على أنه متمحور على ذاته، ويتخلص من دهشته ورفضه وعنصريته اتجاه اكتشاف الآخر فيفهم بذلك اختلاف الأمم والشعوب يقول " كيف يمكن واحدنا أن يكون فارسياً؟"¹ واليوم نحن لا نعرف ماذا نسأل هل نسأل كيف يمكن لواحدنا أن يكون زنجياً؟ كيف يمكن لواحدنا أن يكون مختلفاً؟ كيف يمكنه أن يكون إنساناً قبل كل شيء وبعد كل شيء ورغم كل شيء؟ كيف يمكن أن ننظر لاختلافنا على أنه تساوي وتنوّع بدل أن ننظر إليه على أنه تعالي وتفاضل؟

ولكي نصل إلى هذه المرحلة التي تكون فيها الإنسانية هي المعيار الوحيد للتمتع بالوجود، لابد لنا أن نوقف مدّ العنصرية ضد الآخر ونقبل اختلافه عنا بقدر ما ندافع عن حقنا في الاختلاف عنه، إذ أننا حين نتكلم عن العلاقات الإنسانية يكون القانون الفيزيائي القائل بتواتر الأفعال وفقاً لقاعدة "لكل فعل رد فعل يماثله في الشدة ويعاكسه في الاتجاه" فكل فعل عنصري نمارسه على الآخر سيولد بالضرورة رد فعل عنصري اتجاهنا، ولما كان الأمر على هذه الحال فإنه من غير المجدي أن نتكلم عن العنصرية ضد السود باعتبارها ظاهرة وحيدة ومستمرة على مرّ التاريخ، ومن غير المجدي أيضاً أن نتكلم عنهم باعتبارهم ضحية دوم، فالعنصرية ضد الزنوج هي جزء من العنصرية بشكل عام لذا فإنه من الأجدى الحديث عن مجموعة وتعددية من العنصرية المتنوعة المتعددة، التي كرست على مرّ التاريخ الإنساني وهو ما تعرضت له الكاتبة التي انطلقت من عنصرية المجرم الأبيض لترينا عنصرية الضحية الأسود، ومن عنصرية العرق لترينا عنصرية الدين والطائفية، وتتطلق من كل هذا لترينا أننا جميعاً نمارس شكلاً ما من أشكال العنصرية، لهذا سنحاول من خلال مدونه بحثنا تتبع ظاهرة العنصرية وفقاً لقانون الفعل ورد الفعل وكيف يؤثر على الضحية ليجعل منها فرداً عنصرياً.

¹ - إيلان هاليفي، رهاب اليهودية والإسلام الصورة في المرأة، تر: سناء الصاروط، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت، ط1، 2017، ص: 25 .

1: صورة السود في عيون البيض :

أنتجت سياسات المجتمع وتحكم الأنساق الثقافية في الأفراد تبرؤ من السواد والشعور بدونيته، دونية لم تكن من طبيعة الأشياء ولا من بديهيات العقل، إنما فقط أوجدها الإنسان القوي ليبرر استوحاشه على أخيه الإنسان الضعيف، فعانى الأسود على مرّ التاريخ الإنساني من حاله الرفض والاضطهاد "فينظر له بنظره دونيه، وذلك أن الزنجي اقترن في المخيال الاجتماعي بصورة القبح والوحشية والبدائية، في حين أن الأبيض ارتبط بالجمال والدهاء والحضارة"¹ ومن هنا أصبح الزنجي العبد الذي يرفض وترفض ثقافته وانتماءه بل ويبرمج ليتعلم رفض ذاته من جهة، ورفض الآخر الذي يرفضه من جهة أخرى.

فسمة الاختلاف بارزة في النص، إذ نلاحظ من خلال الرواية أن أول تمظهرات العنصرية تمثل في نظرة البيض إلى السود على أنها نظرة لا تختلف كثيرا عن صورة الشياطين والوحوش - تستند في ذلك إلى أحكام مسبقة وكلية- بحيث تكسو الذات أو الأنا هالة من القداسة وتتنظر للآخر أو الهو على أنه صورة للشيطنة، فيصبح كل أبيض شعار للطهارة والنقاء وإن كان يحمل في ثنايا فؤاده حجر الصوان الفاحم بدل قلبه، وكل أسود هو صورة للشر وإن كان يحمل في صدره كل ما يمكن للقلوب البشرية أن تسعه من الرحمة والنقاء، وهذا الشعور بالتقديس للذات أثث لرفض الآخر رفضا مطلقا حيث يستكف البيض بطهارتهم المزعومة أن يمسخها دنس من سواد أسود سولت له نفسه الأمانة بالسوء أن يطمح ببصره ويطمح بفؤاده إلى أن يساكنهم أحياءهم ويزاحمهم شوارعهم ، وهذا ما نشاهده في احد صفحات الرواية الذي يتحدث عن طرد والذي "جوان" من مسكنهما في حي البيض والذي أنفقا من أجله كل مدخراتهما، ثم لم يستطع أن يتحمل وجودهما لأكثر من أسبوع فطردا " بحجج مزيفة مدفوعة بحقيقة عجز الحي

¹ - هشام حاكمي، الهوية الزنجية في المجتمع المغربي والعنف، قراءه في رواية ذاكره النرجس لرشيد الهاشمي ،

عن قبول شوائب لونية¹. والبيض ينظرون إلى السود على أنهم مشاريع عبيد وهو ما صرح به "فوزي" وهو يقول: "كل أسود في الخليج هو مشروع عبد يا عزيزتي..."².

فالاختلاف اللوني هو اختلاف فاحش تراه كل العيون وترصده عين الحب الذي يفترض بها أن تكون عمياء، فأصبحت العين ترى الاختلاف في لون البشرة بين العشاق وترفضه وتكفر به، فالاختلاف بين "فوزي" "وجوان" عميق جدا فهي إنجليزية وهو عربي، هي أمريكية وهو كويتي، هي مسيحية وهو مسلم، هي من عالم متقدم وهو من عالم متخلف جدا، لكن حين أحبها وأحبته غض الحب طرفه عن كل اختلاف بينهما، وغشي العشق أبصارهما ودفع بهما إلى أحضان السعادة، لكن الحب -ويا للمفارقة- أصبح بصيرا سميحا، حريصا متوجسا من الماضي مستشرفا للمستقبل، حكيما يحتكم للعقل حين انحصر الاختلاف بين الحبيبين في الجانب اللوني "فسارة" "وجمال" من أرض واحدة هي الكويت، وعلى دين واحد هو الإسلام، وعلى لسان عربي واحد، ولا فرق بينهما إلا في أنها بيضاء وهو أسود والحب الأعمى طبعاً عمي هذه المرة على كل ذلك التوافق بين قلوبهما وروحيهما وبين نظرتيهما للحياة... عمي عن كل هذا الانسجام لكنه أبصر الاختلاف في الألوان بينهما فصاح ك يف للأسود المذلل بالعبودية أن يرتكب جريمة عشق البياض المتوج بالسيادة؟ كيف لعلامة الدناسة أن تخالط شامة القداسة؟ رغم كل التوافق بينهما وهذا الاختلاف الوحيد الذي لا يغتفر كان كافياً لحكم والد "سارة" برفض هذه العلاقة وكان كافياً لإقناع "سارة" - الجامعة اللوححة العنيدة التي لم تتعود أن تتنازل عن أمر عزمت عليه وعن شيء أحبته - بالتخاذل، فإذا بها تنكث كل تلك العهود وتبدد ذلك الحلم الذي رسمته أمامه وهي تقول: "أنظر كيف لسوادك أن يزيدي بياضاً"³ وتقول في موضع آخر: "ولسوادك أكبر أثر في تحرشي بك ذلك اليوم"⁴ كل هذه الأحلام الجميلة التي توقفتنا أمام مشهد قبول البياض الناصع بالسواد القائم بل وحبه له كلها أصبحت وهما زائلا وطيفا آفلا أمام رفض العائلة والرفض المتجذّر في لاشعور

1 - سعادة الدعاس، لأنني أسود، ص: 30.

2 - نفسه، ص: 69.

3 - نفسه، ص: 244.

4 - نفسه، ص: 246.

"سارة" التي تبطنه وتداريه "أطفالي سيحملون الصبغة ذاتها، لأن صبغتك أقوى... هذا الأمر يشكل كارثة بالنسبة لأمي..."¹ وفي حقيقة الأمر هو يشكل كارثة لها، وحين يقول ردا عليها " يبدو أن لوني يشكل هاجسا بالنسبة لك أيضا".

تصمت الحبيبة إلى الأبد وهكذا تبلغ العنصرية أعلى درجات شدتها تصل إلى درجة يعجز حتى الحب الوقوف في وجهها بل يعجز عن الوقوف في وجه تيار التمييز العنصري اللوني الذي تغلغل إلى اللاشعور الجمعي، فتأتي أكثر جملة تعبر عن ألم الاضطهاد لأنه ألم امتزج هذه المرة مع وجع القلب الكسير، وحرقة الشوق، وخيبة الأمل بالفقد، وذلة العجز تجمع كل ذلك في صحن الوجه الأسود، القاتم، الذي زاده الحزن سوادا على سواد حتى بلغ منتهاه، يقول "جمال" "كل مصطلحات العنصرية التي واجهتها في حياتي... لم تشكل مأساة مقابل حقيقة أن حبيبتي الوحيدة ترفض أن ترزق بطفل يحمل صبغتي"² ولن نعلق على هذه الجملة لأن كل لغة هي دونها، دون أي قدرة على التعبير عما تختزنه من الشعور بالاضطهاد، هذا الشعور الذي سيدفع "جمال" إلى مغادره الكويت وهو يقول " لم يعد لي مكان في بلد يرفض حبي لمجرد أنني أسود ... اليوم أعود لبلد احتل فيه الأسود البيت الأبيض"³ لكن وجود الأسود في البيت الأبيض لم يكن بالنسبة للسود في ذلك البلد أكثر من جرعة مورفين تخفف عنهم الألم قليلا إلى أن يكتشفوا أنه سواد في خدمة البياض، وليس سواد في خدمة السواد.

2- صورة البيض في عيون السود:

إن الممارسة العنصرية التي اجترحتها البياض في حق السواد كانت دافعا لإثارة رد فعل لدي الأسود، بحيث تصبح عنصرية الأبيض ضد الأسود بمثابة الشرارة التي تقذح نار العداوة اتجاه الآخر، فتُصهر عليها مختلف أشكال التباين بين جماعات البشر، لتسبك حلقات سلسلة لا متناهية من العنصرية، فيصبح فيها كل طرف ضحية من جهة وجلادا من جهة أخرى، وتبدأ الحلقة بتعرض كل من "جوان" و" فوزي" و"تاشا" شقيقة "جوان"

¹ - المرجع السابق، ص: 252.

² - نفسه، ص: 253

³ - نفسه، ص: 255

لعنصرية البيض، ومن ثم تتشكل سلسلة من ردود الأفعال المزدوجة التي تكون بدورها مغذيا لسلسلة أخرى ونقدمها كما يلي:

2-1 رد الفعل على العنصرية بالنسبة لـ "جوان":

تتعرض "جوان" بطلا الرواية لمختلف أشكال العنصرية البيضاء منذ الصغر، فيكون لذلك أثر عميق على نفسها بحيث نسجل على المستوى السلبي لآثار العنصرية على "جوان" اثرين بارزين:

الأول: أن "جوان" أصبحت تعيش حالة من رفض الذات ويتجلى في عدة مواقف منها: تمنيتها لأن يكون ولدها أقل سوادا يقول "جمال" "أمي جوان مكلاين... تمنيت أن أكون أقل سوادا" ¹ كذلك وهي تهمس "إلهي... امنح بشرته بعضا من نور قلبي العامر بنور الإيمان" ² وهذه الجملة تحمل دلالة واضحة على احتقار "جوان" للسواد المفروض عليها وتمنيها الخلاص منه، فهي نفسها تمثل الإيمان بالنور، والنور بالبياض حين تدعو ربها أن يبيض بشرة ولدها بنور إيمانها، فإن كان البياض هو رمز للإيمان فهذا يشير بطريقة ما إلى أنها تقرّ بالفكرة القائلة أن السواد يعني الكفر، الدنس والفساد، فرغم تمنيتها بأن تجمعها علاقة برجل "أقل سوادا من كل رجال محيطها" ³ وأن تتجنب منه ولدا هجينا أقل سوادا منها وهي التي لا تمتلك أي نقطة بيضاء في جسدها، فإن الخوف من الاضطهاد والعنصرية كان يسجنها داخل بيئتها السوداء، ويظهر هذا من خلال سؤالها لأختها "تاتشا" "أين ستقضين بقية حياتك؟" ⁴ فهي تحلم بالخلاص من الحي المتواضع الذي تعيش سجينه فيه، لكنها لا تستطيع الخروج منه خوفا من عنصره البياض، لذا تتمنى أن ترزق بطفل أقل سواد لعلّ قطعة منها على الأقل تخرج وتفلت من هذا المكان، فكل محاولات والدها "ديفيد" في منحها إحساسا بالانتماء خلال طفولتها قد فشلت وبقيت تشعر دائما بأنها صورة عن القبح الأفروأمريكي و زميلاتها الشقراوات صورة عن الجمال الأمريكي.

¹ - المرجع السابق، ص: 8

² - نفسه، ص: 8.

³ - نفسه، ص: 15.

⁴ - نفسه، ص: 19.

الأثر الثاني: يتمثل في ممارسة "جوان" للعنصرية بشكل لا واعي فأصبحت تمارس أنماطا مختلفة منها ضد الآخرين فحاولت من جهة أن تشكل قرين بين البياض والعفونة في قولها " شاب أبيض هيبى لم يمس جسده الماء قط، يصدر عفته للممر المشترك"¹ ومن جهة أخرى تصدر أحكاما لا تستند إلى المنطق وذلك في حديثها عن " فوزى" في أول لقاء بينهما تقول "ستكون أغبى علاقة في التاريخ، عربي، وقد يكون مسلما أيضا، يا إلهي ما أغباني"² وتزداد صورة هذه العنصرية وضوحا من خلال هذا المقطع الحوارى الذي دار بينها وبين "فوزي"، حين يقول لها:

" تعالي نجرب اكتشاف تلك التراكمات التي يتكسد بها عقلك، أعطني مرادفا لكلماتي، عديني بإجابة سريعة دون تفكير.

أومات بالموافقة.

- صيني؟
- لغته انجليزية سيئة؟
- و....؟
- يأكل الكلاب.
- مجموعة من الصينيين؟
- عصابة
- مكسيكي؟
- مجرم
- مكسيكية؟
- خادمة
- سمين؟
- غبي

¹ - المرجع السابق، ص: 39 .

² - نفسه ، ص : 45.

- شقراء؟
- ساذجة... (بعد لحظة صمت).. ومحظوظة
- سعودي؟
- متخلف... عنيف" ¹
- مسلم؟"
- ظلت صامته
- أجيبيني بصراحة، ما الذي ورد في ذهنك أول لحظة؟
- شهواني؟
- مسلم؟"
- ظلت صامته
- أجيبيني بصراحة، ما الذي ورد في ذهنك أول لحظة؟
- شهواني؟
- وماذا أيضا؟
- سادي
- وأيضا؟
- همجي
- والعربي؟
- مسلم (ابتسمت بخجل)... ²
- " أيرلندي / عنيف
- روسي / جاسوس
- بولوندية / عاهرة
- إيطالي / تاجر مخدرات ³

¹ - المرجع السابق ، 77-78.

² - نفسه ، ص: 78.

³ - نفسه، ص: 81.

هكذا أصبحت معانات "جوان" وما عاشته من عنصرية وظلم متغلغلا في نفسها حتى أنها صارت تمارسها لا شعوريا على الآخرين كنوع من التعويض عن الشعور بالنقص، ولم تتجاوز هذه المرحلة إلا بعد أن تعرفت على "فوزي" الذي وجدت في سواده انتماءها وجعلها تقرّ من خلال هذا الحوار أنه لكي تستطيع أن تتخلص من دور الضحية يجب أولاً أن تتجرد من دور الجلاد الذي تمارسه على الآخرين، "ففوزي" لعب دورا هاما في تخليص زوجته "جوان" من عنصريتها قبل أن يخلصها من كونها ضحية لها وهذا ما يثبت تأثرها الشديد حين اكتشفت عنصرية "فوزي" ضد خابط أخته "وليد" الشيعي وهي تقول "كيف نطالب بعدالة الآخر معنا، ونحن أول من يتقنن في ظلم الآخرين إن سنحت لنا الفرصة؟"¹ لتقرر بعد ذلك العودة إلى أمريكا لأن اكتشاف الوجه العنصري "لفوزي" حطم مقام حبه في قلبها، وفقد هالته التي كانت تكسوه نورا رغم سواده، ليغدو مظلما لا نور فيه.

2-2: رد الفعل على العنصرية بالنسبة لـ"فوزي".

فوزي بدوره وإن لم تذكر لنا الرواية مواقف كثيرة وذات بال عن معاناته من العنصرية، إلا أنه كان له نصيب وافر منها، وهو ما يظهر لنا من خلال قوله "فلا أسوأ من زملاء يؤمنون أن كل أسود عبد، وكل عبد أسود"² وتبقى محاولة تشويهه البياض وربطه بالقذارة والعفونة، حاضرا في الرواية ويظهر ذلك في قول فوزي "ظلت والدتي توصي بعدم الأكل في بيوت الأميركيان الشقر خاصة لأنها تؤمن أنهم لا يستحمون"³ وتظهر معاناته من العنصرية وهو يحكي في مذكراته "لجوان" عن أستاذ اللغة العربية وهو يتغنى بعنصرية المتنبي في "كافور الإخشيدي" لا تشتري العبد إلا والعصا معه... إن العبيد لأنجاس مناكيد"⁴ لتكتشف "جوان" بذلك أنها لم تكن الوحيدة التي عانت من العنصرية بل حتى بطلها "فوزي" الذي حررها من عبوديتها ذاق من نفس الكأس.

¹ - المرجع السابق، ص: 189.

² - نفسه ، ص: 144.

³ - نفسه، ص: 79.

⁴ - نفسه، ص: 143 .

وقد أثرت العبودية على "فوزي" سلبا وإيجابا فمن الجانب الإيجابي فقد ساعدت معاناته على تعزيز ثقته بذاته وانتماءه إلى درجة النظر للآخرين نظرة دونية، ويظهر هذا الحب للذات والفخر بالانتماء إلى السواد في قوله "أنا أشد إخوتي سوادا فاعتادت أُمي أن تقول لي لوما السواد غالي ماسكن بالعين"¹ وساعد هذا على تعزيز مكانته في المجتمع الذي ينظر له على أنه عبد سابق وهو ما يظهر لنا من خلال قوله: "ولأنني اكتشفت السوق الفني يصر على حكر لون بشرتي بأدوار الشر والعبودية، قررت أن أصبح مخرجا، أن أكون الفارس لا الحصان"² فما عاناه "فوزي" جعله يبحث عن الخلاص من خلال التفوق في مجال تخصصه وفي دراسته وتحقيقه لذاته لكن "فوزي" أيضا شأنه شأن "جوان" لم يسلم من رواسب العنصرية التي تسللت إلى نفسه، حين مارس العنصرية الطائفية وهو يهين "وليد" الفتى الشيعي الذي أحب أخته "ناديا" وأحبه لثلاث سنوات وكان مبرر الرفض الذي قدمه أن الرجل شيعي تقول "ناديا" لجوان: "ولم يكن هناك ما يثير التساؤل... لكن فوزي ... سأل أكثر واستفسر أكثر وبعد أن اكتشف انتماءه رفض... نحن سنة لا نعطي الشيعة"³ ولم يتوقف رفض "فوزي" لتزويج "وليد" إلى حد الرفض المهذب المستند إلى مرجعية دينية بل بالغ في أسلوب رفضه حد إهانته يقول: "لا تعرضني لإهاناتك أكثر يا ابن الناس"⁴ وطرده من منزله شرّ طردة.

لم يكتف "فوزي" بممارسة العنصرية الطائفية بل تعداها إلى عنصرية الذكورة على الأنوثة، عنصرية نبرع وترفن فيها في العالم العربي ونسبها تحت مسميات شتى منع الاختلاط، الرجولة، الفحولة، الغيرة... ونسدل عليها ستارة متباينة فمرة نكسوها ثوب الدين، ومرة ثوب العادات والتقاليد، ومرة ثوب القوة والسطوة، رجولة أخذ الرجال بموجبها كل حق، وحرّم المرأة من حقوقها الذي أعطاه لها الشرع وأوجبه لها الدين وهو حق التعلم، "فوزي" الأخ السني الذي يتعلم التمثيل مع جميلات الكويت، قضى بسجن أخته وجعله سجنا أبديا كعقوبة لها لتجرئها على أن تأتيه بخاطب شيعي، فمنعها من

¹ - المرجع سابق، ص: 59.

² - نفسه، ص: 62 .

³ - نفسه، ص: 183 .

³ - نفسه، ص: 183

الخروج وحرمتها حقها في الزواج وعزلها عن وظيفتها الطبيعية كأم وزوجة، ويبدو أن "جوان" أيضا لعبت دور المخلص "فوزي" من عنصريته فبعد أن وقع في حب مسيحية أمريكية إنجليزية، وبعد أن استشعر دنو أجله وقد أخبره الطبيب أنه مصاب بورم في الدماغ شعر بوخز الضمير تقول "ناديا" قبل وفاته بأيام كلمني فوزي للمرة الأولى منذ سنوات رفضه لوليد عندها سألني أن أسامحه...¹، "فوزي" الذي رفض "وليد" وهو قوي صحيح يرجو الحياة، ولا يفكر في الموت ويرجو الدنيا ولا يعتقد أنه قد شارف على الآخرة أن يصاهر شيعي، عاد عن كل ذلك وعقد نوع من المصالحة بينه وبين العالم فحاول أن يكفر عن خطئه حين أوصى بأن يدفن في مقابر الشيعة. وهذه المصالحة التي عقدها لم تكفر عن عنصريته فكيف يعترف بهم وهو جثه هادمة ولا يعترف بهم وهو على قيد الحياة، فعنصريه "فوزي" ضد أخته "ناديا" أنتجت رد فعل تمثّل في عنصريتها اتجاه "جمال" و"جوان" وقد مارست هذه العنصرية من خلال المتنفس الوحيد وهو اعتزالهم وتجنب الحديث إليهم، فكان هذا بمثابة التنفيس عن حقدتها وكرهها لأخيها "فوزي" تقول "هل أذنبت في عقابكم على مأساة صنعها أخي الذي حرمني أن أعيش حياتي"² وتردف "أود أن أكون حنونة مع ابنه وزوجته أرغب أن أغفر له... لكني أعجز عن ذلك"³.

3-2: رد الفعل على العنصرية بالنسبة لـ"تاتاشا":

كان أثر التعرض للعنصرية بالنسبة لـ "تاتاشا" أخت "جوان" سلبيا تماما، خاليا من أي تداعيات إيجابية إذ تظهر في الرواية بصورة الخاضعة المستسلمة لواقعها، فهي تقضي جل وقتها في الدراسة، ولم تكن تطمح للخلاص من سوادها فهي تقبله وتتعايش ومع ما يترتب عليه من إجبارية البقاء في حي السود طوال عمرها حين تجيب عن سؤال "جوان" عما إذا كانت تعلم أين ستقضي بقية حياتها فتقول: "نعم هنا في نفس الولاية وفي نفس الحي"⁴ وهي مقتنعة وراضية بهذا الواقع ولا تريد أكثر من أن تكمل دراستها

¹ - المرجع سابق، ص: 184.

² - نفسه، ص: 185.

³ - نفسه، ص: 185.

⁴ - نفسه، ص: 19.

وتتزوج رجلا سودا هو حبيبها "بريك" أو بديله "جاشوا" وهي مقتنعة أنها لا تمتلك مؤهلات لتحلم بزواج أبيض أو أقل سوادا، لذا تجتهد في الحفاظ على مؤهلاتها لامتلاك زوج زنجي مثلها ويظهر هذا الحرص في قولها "حفاظا على جسد أعلم أنني لو لاه لن أتزوج في ظل بيئة سوداء معظم نساءها يتحلين بالقوام الممشوق"¹ ومن هنا نستطيع القول أن "تاتاشا" تمثل صورة المضطهد الخاضع لجلاده فهي لا تحلم بالخروج من قوقعتها الآمنة، ولا تريد ولا تجرؤ على التفكير في كسر الحاجز بينها وبين الآخر.

هكذا أنتج لنا فعل عنصري واحد سلسلة من ردات الفعل ومن الممارسات العنصرية المتتالية، لأن كل فرد يجد في من هو دونه كيس ملاكمة مناسب ليفرغ فيه ما تلقاه من الآخر الذي سولت له نفسه أن يوجه إلى غيره ضربات موجعه تصيب روحه وانتماؤه وثقته بذاته بدل أن تصيب بدنه، فكلما زاد بياض البيض زاد عداؤ السود لهم، لأنه بمثابة رد فعل على إشاعة هذا البياض لفكره قبح السواد، وهذه المبالغة في اضطهاد البيض للسود ومعاداتهم لهم دفعت السود من خلال الغريزة الفطرية الميالة إلى حماية النفس للتعزز والنفور من هذا البياض المشع، لأن العداوة تولد العداوة، والظلم يولد الظلم، لهذا لا يمكن لمن زرع شوك العنصرية أن يشم أريج الأمن وزهرة الحرية.

ثالثا - العنصرية من خلال عدسة السينما:

هوليوود خير من يرسم القيد على معصمي المرأة الشرقية، وهي خير من يأخذ المحاة ويدعي أنه مفتاح قيد لم يكن موجود، هي فقد رسمته، وهي فقط من اصطنعت الخوف وزرعته، تضع بين أيدينا مرآة مقعرة أو محدبه فنبرص صورنا شوهاء تقول "سعداء الدعاس" على لسان أحد شخصياتها "هوليوود خير من يصنع الجراح خير من يستعرض جرائم السود... عنفهم فوضاهم... خير من يحول جمالهم إلى قبح... ما الذي تريده هوليوود منا، ما الذي ترغب الوصول إليه هل تسعى لقتلنا ونحن أحياء، هل ترغب بحثنا على سلخ جلودنا، اجتثاث جذورنا هل تسعد بدموعنا قبل النوم"² فقط هوليوود تتقن

¹ - المرجع السابق ، ص : 23.

² - نفسه ، ص68.

سلخك من ذاتك، ومتى قررت ارتداء جلدك وخلعت جلد العالم الآخر سوف تسبغ عليك الإجمام قبل أن تقترفه، وتصمك بالفقر قبل أن تبثلى به، وبالجهل قبل أن تتكلم، مع هوليوود لك دائما حرية الاختيار بين أن تكون موجودا في غير ذاتك، وبين أن تعدم وجودك وأنت موجود، فلما أن ترتدي جلدك الشفاف الذي لا تراه عدسة هوليوود فتكون غير مرئي لكن موجود، أو ترتدي جلدا قائما تراه عدستهم لكنه ليس جلدك.

هكذا تخدع هوليوود الإنسانية تدعي التسوية بيننا أمامها، ولكن في الأعماق قررت أن العرب وحدهم متخلفين، والمسلمين وحدهم إرهابيين، والسود وحدهم عبید، والأوروبيين البيض وحدهم بشر، وساسة وقادة ونبلاء.

لذا أصبحت العبودية أحسن بكثير من وهم الحرية، كتب "جون كيتس" لحبيبهته "فاني بروان" "أتمنى لو كنا فراشات لا تعيش إلا ثلاثة أيام، ثلاثة أيام صيفية تحتوي من السعادة على أكثر بكثير مما يمكن لخمسین سنة عادية أن تحتويه"¹ وكتب "احمد خيرى العمري" في روايته "شيفرة بلال" "فكرت أنه على الفراشة أن تكون حرة أولا قبل أن تكون حياتها رائعة"² وبالمقابل نفكر نحن أن نكتب على الفراشة أن تكون قادرة على تحديد لون الزهرة دون أن تعتمد على طبيعة الضوء المنعكس لكي تكون حرّة، وإلا فإن الضوء هو الذي يحدد طبيعة اللون وحينها سيكون موقف الفراشة من الزهرة مترتبا على اختيار الضوء وشدته وزاويته، بدلا من أن يكون مترتبا على الاختيار الحر للفراشة وحينها تكون الفراشة عبدا وأمة للضوء المخادع، ولمزاجه المتقلب، لن تصل الفراشة إلى حرّيتها مادمت تفهم الحرية على أنها الحق في التحليق بين الأزهار، حولها وفوقها، لن تعيش الفراشة حياتها الجميلة حتى تتحرر من وهم الحرية وتدرک أن حرّيتها معناها أن تختار موقفها من الزهرة كما تراها بعينها لا كما ينعكس عليها الضوء، إذ نتصور أن

¹ - أحمد خيرى العمري، شيفرة بلال، ص159.

² - نفسه، ص188.

الحرية تكمن في قدرتنا على تحديد مواقفنا من الأشياء وفقا لما نراه لا لما يُصوّر ويُقدّم لنا، وإذا أردنا أن نسأل هل نحن أحرار أم نعيش وهم الحرية؟ يجب أن نسأل: هل مواقفنا من الأشياء حولنا تختارنا أم نختارها؟

هكذا قدمت لنا "سعداء العداس" دور السينما في صناعة مواقفنا، على لسان بطلها "فوزي" الفنان الذي اختار أن يكون "الفارس لا الحصان، أمام سوق فني يحصر أدوار السود في الشرّ والعبودية فقرر أن يكون في زاوية الإخراج"¹ قرر أن يتحدى القانون السكوتي الذي أجمعت عليه شاشات السينما والقائل "كل الخدم في الأفلام سود، وكل السود في الأفلام خدم"² ببساطة تريد أن تصب عقولنا في قالب عدستها، أن تثيرها بفلاش آلات تصويرها، لكن نور الفلاش ساطع يُغشي أبصارنا عن الحقيقة؛ حقيقة أنها تسعى لطمس اختلافنا ومسح تنوعنا ومحو تبايننا، حقيقة أنها لا تريدنا ما يجب أن نراه بل تريدنا ما تريد أن نتبناه، فتجعل من وهم الطبقيّة صنما ندين له بالولاء.

لهذا سنحاول خلال هذا العنصر أن نقرأ وضع السود في عيون السينما من خلال عملين سينمائيين هما فيلم الرسالة وسلسلة جذور "لايكس هيلي"، وقبل ذلك نشير إلى أن سبب اختيار هذين العاملين من بين العديد من الأعمال السينمائية التي تحكي عن العبودية لم يقع عبثا، فلم "بلال" يعالج فكرة العبودية في البيئة العربية من جهة وكون "بلال" يمثل أحد الشخصيات التاريخية التي حضرت في الرواية كنسق ثقافي يرمز للانتصار، أما بالنسبة لسلسلة جذور فنبرر اختيارنا لها بمبررين أولهما: أن الفصل الأخير من الرواية موضوع الدراسة يحمل نفس عنوان السلسلة "جذور"، وثانيهما: أن الرواية وسلسلة "جذور" تعالج فكرة تشبث السود بأصلهم هويتهم، وجذورهم الحضارية والثقافية،

¹ - سعداء العداس، لأنّي اسود، ص 62.

² - نفسه، ص 68.

فإن كان "كنتا كنتي" قد حارب في الرواية والفيلم ليمنع بالأمس اسمه من أن يمحي "قفوزي" وجمال" وجوان" في رواية "لأنني اسود" يحاربون الواقع اليوم ليمنعوا سوادهم من أن يطمس أو يربطهم بماضي يحمل معه ريح العبودية. فالحرية التي اكتسبها السود اليوم حرية منقوصة، لأننا ألغينا العبودية ولم نلغ العنصرية ونظرة الدونية والتعالي والاحتقار.

يقول "خيرى العمري" في رواية "شيفرة بلال": "تصادف دوما صخرة في حياتنا يمكننا جعلها صخرة سيزيف أو صخرة بلال".¹ " كان أمية بن خلف سيد بلال، يخرج بلالا في الظهرية عندما ترتفع الشمس إلى بطحاء مكة صحراءها خارج المدينة فيدفع ومن معه بالصخرة العظيمة ويضعها فوق صدر بلال... فيشعر بلال بالانسحاق تحتها لكن صوته يردد أحد أحد"²

والمشهد يتكرر -وإن بطريقة أخرى- مع "كونتا كنتي" "الفتى الأسود الذي تم اختطافه من إفريقيا وجلبه إلى أمريكا وبيعه كعبد.... يرفض أن يرد على اسمه الجديد الذي اختاره له سيده الأبيض وكان السيد قد اختار له اسم توبي ثم ربطه بالحبال وضربه بالسياط بشدة أمام كل العبيد الآخرين.

ما هو اسمك ؟

يرد كونتا كنتي

فتنهال عليه سياط الرجل الأبيض

ما هو اسمك ؟

¹ - احمد خيرى العمري، شيفرة بلال، ص 44.

² - ينظر، نفسه، ص 38 - 108.

فيرد بصوت لا يكاد يسمع كونتا كنتي كونتا كنتي

كان على وشك الموت عندما جاءه السؤال ما هو اسمك؟

فقال: توبي.

هنا انتصر الرجل الأبيض وطلب منه أن يرفع صوته ليسمعه كل العبيد¹.

انلخص إلى القول بأن الممارسة العنصرية مهما اختلف زمانها وأشخاصها، فإنها تبقى تستند إلى نفس الركيزة وهي التجريد من الهوية، ومسح الآخر وتذويبه في الأنا، لنقرّ أيضاً أن محاولة "أميه" لتغيير دين "بلال" هو نفسه المنطق الذي استُبدل به اسم "كونتا كنتي" إلى توبي أو استبدال كلمة "أحد أحد" التي ردها "بلال" رضي الله عنه "بهبل"، فكل هذه السلوكيات هي صورة لمظهر واحد وهو سعي العنصرية لطمس الآخر وتجريده من ذاته وسلخه عن انتمائه وإن كان "بلال" رضي الله عنه قد شكّل الفارق بثباته على قناعة ويقينية المعبود على أنه "أحد أحد" وهزم جلاده على خلاف "توبي" الذي تخلى عن اسم "كونتا كنتي" تحت وطأة التعذيب ولنعدام المنقذ، لكنه احتفظ به في قلبه، إلى أن يموت في الحلقة الأخيرة من السلسلة فتأتي ابنته "كيزي" وتمسح عن قبره اسم "توبي" وتكتب "كونتا كنتي" لتستعاد الحرية/ الوجود الرمز ولو بعد الموت.

وبالتالي فإن أفلاماً أخرى خارج سياق الطرح الهوليوودي، وبعيد عنها تؤسس لفكرة التحرر لا فكرة العبودية، ونعتقد أنه من غير المنصف أن نحصر صورة السود - كما تجليها السينما - في فكرة الخدم والعبيد، وهو ما تنبه إليه الروائية "سعداء الدعاس" في روايتها، فكما أن السينما الهوليوودية قدمت كمجرمين وقتلة، قدمت السينما المنصفة أيضاً كرموز للتحرر والنضال، وكأبطال.... لذا فإن الكاتبة "سعداء الدعاس" ركزت

¹ - المرجع السابق، ص 61.

عدستها على زاوية واحدة من زوايا السود في السينما عبر الحرب الناعمة التي يبثونها، وتجاوزت الصورة النمطية التي تصور مواقفهم النضالية.

الفصل الثاني

أولاً : المبررات الثقافية لفعل العنصرية في النسق الثقافي العربي والغربي.

ثانياً: دور النسق الثقافي في تخفيف حدة العنصرية.

تمهيد

يقوم النص على علاقة جدلية بينه وبين الإنسان كمؤثر فيه ومتأثر به، لأن الإنسان (القارئ أو المتلقي) الذي يتقصد النص أن يراوده عن حسه الأدبي، ويتحرش بحساسيته الفكرية ليثير معه نوعا من الجدل النقدي، فهو قبل أن يكون آلية يشتغل عليها النص الأدبي " لتوقيع شعريته من جهة، وشعرية تلقيه من جهة أخرى"¹ - من خلال قدرة هذا القارئ على التبادل الحوارية مع النص كذات فنية وجمالية- فإن هذا القارئ أو المتلقي قبل كل ذلك يمثل المادة الخام للنص، فقبل أن يستوعب القارئ النص كتجلي فني جمالي فإن النص هو الذي يستوعب القارئ كتجلٍ ثقافي، باعتبار أن الثقافة هي مجموع تمثيلات المعرفة الإنسانية كالممارسة الفكرية والسلوكية أو بتعبير آخر "مجموع التراكم المعرفي والممارساتي الذي حصله الإنسان خلال مسيرة تطوره"²، إذ تلعب دور القناة الحوارية بين النص والقارئ فتسمح للنص بتلقي الإنسان ككينونة حضارية، ومن خلالها يتلقى الإنسان النص ككينونة فكرية جمالية، فهذا الأخير من خلال استيعابه للإنسان كثقافة يهيئ بذلك لنفسه الوسط الملائم ليمارس سلطة "توجيه اتقاناته التعبيرية وأبنيته الأسلوبية وإحالاته المرجعية إلى قارئ محدد مهياً لاستقباله"³ وهذا القارئ المحدد ما هو إلا الإنسان الثقافي الذي استوعبه النص ومارس عليه عملية القراءة الثقافية، وهنا نتكلم عن عملية تلقي مزدوجة يتلقى فيها النص الإنسان ويمارس عليه نقده ثم يتلقى فيها الإنسان النص ليمارس حق

¹ - سميرة قروي، شعرية التلقي بين سلطة النص وحرية القارئ، مقال منشور في الشبكة الالكترونية www.univ-bouira.dz.

² - عادل صياد، الأنساق المضمرّة في رواية قواعد العشق الأربعون (رواية عن جلال الرومي) لإيلاف شفاق، م لنيل شهادة الماستر، جامعة العربي التبسي، تبسه، 2016/2017 ص: 39

³ - سميرة قروي، شعرية التلقي بين سلطه النص وحرية القارئ، www.univ-bouira.dz.

الرد من خلال "استنطاقه واستكشافه"¹ وهنا يكون بدوره يمارس فاعلية قرائية مزدوجة إذ يشتغل على " ذاته التي امتصها النص وعلى النص في آن واحد"²، فأصبح من الواجب على النقد قبل أن ينظر في تلقي الإنسان للنص أن ينظر في كيفية تلقي النص للإنسان، من خلال استيعابه للنسق الثقافي كنظام فكري شمولي تصبح الأجزاء خارجه بدون قيمة* حيث يعمد النص إلى استثمار هذه الصفة الشمولية للنسق الثقافي التي تخوله إلى استغراق مجموع القراء أو مجموع عناصره الإنسانية (الأفراد المنتمين للثقافة التي يبني عليها النص توجهاته الإيديولوجية) لتمرير أغراضها تحت أقنعة خفية نفذت من الحيل الجمالية، لذا فإن فهمنا للنص لا يتم إلا من خلال فهمنا له كتجلي ثقافي وكرسالة ثقافية في الآن نفسه؛ إذ أن كل كاتب وهو يمارس فعل الكتابة يمارس فعل النقد الثقافي، فمشروع هذا الأخير حسب "عبد الله الغدامي" "يتجه إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة وسائل خافية، وأهم هذه الحيل هي الحيل الجمالية التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق وأشدّها تحكما فينا"³ أو بالأحرى يمارس نقد الإنسان كتمظهر ثقافي يدافع عنه في كليته، أو يرفضه، أو يدافع عنه ويرفضه في الوقت ذاته.

إن وظيفة النقد الثقافي أو الاستقراء الثقافي للنص حسب المفهوم السابق، تكمن أساسا في الكشف عن ثلاث أسئلة: الأول حول حيل الثقافة (ثقافة أو إيديولوجية الكاتب) لتمرير الرسائل المشفرة داخل النص ومدى قدرة هذه الحيل في مخاطبة وعي القارئ،

¹ -المرجع السابق.

² - نفسه.

* النسق: نظام ينطوي على استقلال ذاتي يشكل كلا موحدًا وتقترن كليته بألية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها. ينظر، اد.بيث كريزويل، أفاق عصر البنيوية، تر جابر عصفور، الكويت، ط 1، 1993، ص: 415.

³ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءه في الأنساق الثقافية العربية، لبنان، ط3، 2005، ص: 77.

وهنا نكون في خضم بحث تأثير الوعي الفردي للمبدع على الوعي الجمعي للقراء من خلال تأثير النص على المتلقي، والثاني حول حيل الثقافة (ثقافة المجتمع أو التوجه الإيديولوجي للجماعة) في توجيه الكاتب نحو أغراض معينة كامنة في لا وعيه وهنا نكون بصدد البحث في تأثيرات الوعي الثقافي الجمعي على الوعي الثقافي الفردي للمبدع أو تأثير الجماعة الثقافية على النص، والأخير كيف مثل النص الواقع الثقافي للبيئة التي حاكها وكتب في إطارها، وبذلك نكون بصدد البحث في النظرة الفوقية المحايدة التي يقتحم بها النص كينونة المجتمع وهو السؤال الذي نروم الإجابة عنه من خلال هذا الفصل، إذ نهدف إلى تشريح الواقع الثقافي لبيئتين أفرزتا رواية "لأنني أسود" للكاتبة "سعداء الدعاس" (البيئة العربية والبيئة الغربية) قصد معرفة تلك الرواسب الثقافية التي تكمن في الوعي الجمعي، وتتجلى في ممارسة الأفراد لفعل الكتابة، وفعل العنصرية - الذي هو موضوع الرواية-

أولاً : المبررات الثقافية لفعل العنصرية في النسق الثقافي العربي والغربي .

عمدت " سعداء الدعاس" من خلال روايتها "لأنني أسود" إلى طرح فكرة العنصرية في البيئة الغربية والبيئة العربية، سواء أكانت العنصرية كنمط سلوكي متعلق بالسواد أو تعلق بالأشكال العنصرية الأخرى التي قدمتها الكاتبة وتعرضنا لها من خلال كلامنا عن العلاقة بين الأنا والآخر في الفصل السابق من هذه الدراسة، محاولين تشريح الواقع الثقافي لبيئتين متباينتين حضارياً وثقافياً وايدولوجياً وعقدياً سعياً نحو الوصول إلى تشخيص الأسباب الثقافية للممارسة العنصرية داخل كل بيئة، والمجالات التي تكون فيها الممارسة العنصرية أكثر حدة، وأظهر للعيان، ورد كل ذلك إلى مبرراته الثقافية، لنجد أن مبررات العنصرية في الرواية تقوم على ثلاث مستويات ثقافية هي: المستوى الاجتماعي ، المستوى الديني ، والمستوى العقلي الفكري؛ بحيث كانت العنصرية في البيئة العربية تتجلى في أبشع صورها على صعيد الجبهة

الاجتماعية، وتتخذ من الدين والموروث الثقافي مبررا لها مرة وغطاءً تتوارى به مرة أخرى. بينما تستند العنصرية في البيئة الغربية إلى مبررات حضارية تتصل أساسا بطبيعة العقل الغربي الذي يصنف قيمة الإنسان على أساس عقلي يقوم على تصور العقل الأوربي حول مدى قدرة العقل غير الأوربي على الإنجاز الحضاري والممارسة الفكرية، وإجمالا وقبل أن نلج إلى تفصيل هذا الكلام بشواهد من متن الرواية نستطيع أن نفترض مبدئيا أن العنصرية في البيئة العربية تستمد لهيبتها من فكرة الانغلاق الثقافي ورفض التباين الإثني، بينما تتوقد جذوتها في العالم الغربي فوق مشعل الانفتاح الثقافي وجدارة الممارسة الفكرية العقلية، التي أفضت إليها تغيرات جذرية في مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية خاصة مع بداية عصر الأنوار حين استطاع العقل الأوربي خلال هذه المرحلة من تاريخه أن يتحرر من مركزية الكنيسة، ولقد امتد هذا التغير إلى الفرد الأوربي نفسه فأحدث تأثيرا على نمط عيشه وتفكيره، إلا أن الطبيعة البشرية التي لا يمكنها الخلاص من رواسبها التاريخية قد انحرفت به فأصبح يحمل مهمة حضارية تقوم على تنوير الآخر، التي آلت به إلى مآلات خطيرة لتنفيذ بالإقرار أن العقل الأوربي " تأسس على عقيدة نفي الآخر، والكوجيتو الديكارتي نفسه قام على فكرة التمرکز حول الأنا باستبعاد الآخر وإسكاته ونفيه من الوجود طالما أنه لا يدخل في دائرة الأنا المفكرة"¹ فأصبح من واجب الأنا الأوربية أن تغير من الآخر وتحمله على اختيار ما تراه الأنسب ولو بالقوة مدفوعا بمنطق أن الآخر أقل عقلا وأقل قدرة على الانجاز، فبدأ العقل الأوربي يعيش حالة من وهم الوصاية الأبوية على الإنسانية مع بداية التغلغل الكولونيالي، فقسم العالم إلى عرقين متباينين "حيث جعل العرق الأبيض سيذا على كل الأعراق، وجعل العرق الأسود لونا للإهانة والاستبعاد

¹ - ينظر، لونيس بن علي ، ادوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلي نقد الرواية الكولونيالية ، الجزائر، ط1،

والشر المطلق، لهذا لم يميز "فانون" بين العنصرية والكولونيالية فبينهما علاقة تلازم، إذ أن العنصرية هي المبدأ الأساسي في العملية الاستعمارية¹ فأصبحت أوروبا تجتاح دوله باسم منع جرائم الحرب، وتجتاح أخرى بذريعة إسقاط نظام دكتاتوري، وتغزو ثالثة بمنطق نشر العلم وتحرير المرأة، فانتقل العقل الأوروبي من مرحلة الوصايا على الآخر ومحاولة تنويره إلى مرحلة اضطهاده وطمس هويته وماضيه "فأصبح من وظائف العنف الكولونيالي إفراغ ماضي المستعمر من كل جوهر ليس هذا وحسب بل إبعاد المستقبل أيضا"² فحاول تبييض صورته بإضفاء صبغة إنسانية يسعى من خلالها إلى تعزيز فكره عبر الغزو الثقافي في فترة ما بعد الكولونيالية بعدما كان غزوا قمعيا عسكريا في الفترة الكولونيالية.

هكذا صورت لنا الكاتبة في صفحات روايتها مركزية الأنا الغربية -البيضاء - في الشق الأول من الرواية وما أحدثته وألحقته هذه الأنا بالآخر -الأسود- خلال فترة ما بعد الكولونيالية، فأصبحت الذات تمقت ذاتها، تتوارى خلف أفتنه بيضاء، تحاول التخلص من الموروث الكولونيالي وما أفرزه من عنف وتكيل وبطش وشعور بالدونية واللاقيمة، ومحاولة إعادة الاعتبار للذات والاحتفاء بها وإلغاء التراتبية بين الأفراد .

أما في الخليج وبالتحديد في "الكويت" نجد العنصرية تأخذ مظهرين هما الطبقة الاجتماعية التي تستند إلى عوامل ثلاثة وهي: عامل الوضع المعيشي وهو عامل مبني على أساس الواقع الاقتصادي، وعامل وهم الأصالة التاريخية، وعامل القوة أو التمايز الطبقي، وهذان العاملان مبنيان على الرواسب الثقافية. أما المظهر الثاني فيتمثل في الصراع الاثني، وينتفرع إلى نوعين: الصراع الديني، والصراع الطائفي.

¹ - المرجع السابق ، ص 33.

² - أشيل ميمبي ، نقد العقل الزنجي، تر طهراوي ميلود، الجزائر، ط 1، 2018، ص: 224.

1-1: مظهر العنصرية على مستوى الطبقة الاجتماعية: نقصد به حالة التفكك أو

التجزؤ الطبقي بحيث يقسم المجتمع إلى عدة شرائح، فالمجتمع الكويتي وعلى صعيد الوضع الاجتماعي يظهر لنا من خلال الرواية مقسما إلى أربع شرائح متقابلة في شكل ثنائيات: الثنائية الأولى خدم / سادة، والثنائية الثانية هي ثنائية الأحرار أصالة والعبيد السابقين.

أ- ثنائية (الخدم والسادة): يظهر المجتمع الكويتي مجتمعا متعدد الهويات، فإلى جانب الكويتيين هناك تعدد هائل في الجنسيات، وهي أول ملاحظة انتبه إليها "جمال" عند دخوله الكويت حيث لاحظ أن المطار يمثل صورة لتتوُّع هوياتي ويظهر ذلك جليا في قوله: "ظل عمي عمبر يبزر لنا تكدر الآسيويين في أروقة المطار، ويفرز بعينيه الهنود عن الباكستانيين عن الاندونيسيين، في البداية اعتقدت أنها قدرة عجيبة على فرز الجنسيات، بعد ذلك اكتشفت أن جميع الكويتيون يمتلكون تلك الموهبة، في ظل بلاد تموج في بحر أسوي... الغريب أن تجمعات المطار كانت نسائه فقط، فسّر عمي ذلك بأنهم خدم منازل"¹ ويعود لاحقا ليقول: "لاحظت طوال جلستنا العائلية الاهتمام بذكر الجنسيات ... المدرسة المصرية، الموظفة اللبنانية، الطبيب الفلسطيني، المدرب السوري..."² وهي ملاحظة تبعث على الاطمئنان للوهلة الأولى حيث أن التنوع في الجنسيات يمكن أن يعتبر على الأقل بالنسبة "جمال" الذي يدخل الكويت لأول مرة نعمة فالكويت تقبل كل من أتاها زائرا فيها مؤمنا أو كافرا، الكويت كما القدس في قصيدة "تميم البرغوثي" فيها "الزنج والإفرنج والقفجاق والصقلاب والبشناق والتاتار والأتراك، أهل الله والهلاك، والفقراء والملاك، والفجار والنسك، فيها كل من وطئ الثرى"³، لكن

¹ - سعداء الدعاس، لأنني اسود، ص 155.

² - نفسه، ص 162.

³ - حسين بسام لافي، تميم البرغوثي في القدس، موقع موضوع، آخر تحديث 11 ديسمبر

لم يلبث "جمال" أن اكتشف واكتشفت معه "جوان" أن هذا التعدد في الانتماءات لا يعني قبول الكويت للجميع فهم ليسو جميعا كويتيون سادة أغنياء مترفين ومنعمين وغير كويتين مستخدمين ومرهقين ومستعبدين بأجرة، هم ليسو سواء لأن لا أسماء لهم إلا أسماء هوياتهم التي تدل على أنهم غير كويتيين فإن كانوا واحدا "لماذا نلقبهم بجنسياتهم إذن"¹، فهم بشر بلا أسماء هذا عن أصحاب الشهادات أما من لا شهادة له فهو عبد بمؤجرة وقد عبرت "جوان" عن وضعهم وهي تقول: "مقزز منظر تلك النساء المتأنقات، رفقة خادمت مكسوات بـ (يونيفورم). العمل في الكويت لا نهاية له"²، فمادام العمل بلا دوام فأين الحرية أين القدرة على الاختيار أين القدرة على العيش الكريم أين وأين وأين؟ إنها عبودية بأجرة تقول "جوان": "يبقى الأجير أجيرا حتى حين يخرج للفسحة الأصل في الأجير... إنه إنسان... لماذا تصرون على تحويله إلى أجير وإلغاء إنسانيته، لماذا تبقونه أجيرا حتى خارج المنزل؟"³.

إن الوضع المترف للاقتصاد الكويتي وضع الجانب الاجتماعي في موضع مزري؛ فحين تستغني دولة غنى فاحشا يمنح لمواطنيها الحق في الركون والخمول والاعتماد على الخدم المستعبدين بثمن بخس، والمستقدمين من الخارج مدفوعين بالجوع والحاجة والفقير إلى القبول بوضع أقرب ما يكون إلى وضع العبودية، بل لعل وضع العبيد خير من وضعهم لأن العبد المسلوب بالقوة يطمح لحرية، لكن العبد المسلوب بالحاجة مغلوب على أمره مكبل بضرورات الحياة التي لا فكاك منها، فلا يملك الخلاص لنفسه أو كذلك أقنع نفسه، فنحن لم نعد نضع في أيديهم أغلالا من حديد نقيدهم بها بل قيدناهم بقيود لامعه براقية يتوهمونها أساور في أيديهم، وقلائد في مخانقهم، وماهي في حقيقة الأمر إلا أطواقا

¹ - سعادة الدعاس ، لأني اسود، ص 162.

² - نفسه، ص 180.

³ - نفسه، ص 180.

تسحبهم، وقيودا تكبلهم لأننا لا نمنحهم الحق في الإنسانية، فالحياة هي التي فرضت على الخدم "وظيفة مدمرة للأعصاب قبل الجسد"¹ لا يعرفون للدوام فيها وقت بداية ولا لحظة نهاية، لا عطلة لهم ولا راحة فهم تحت سلطان سياط الحاجة التي ولدت نمت الاستغلال في بيئة متشربة بروح التعالي والفوقية والترائية المتوغلة والمتجذرة في نسيج المجتمع الكويتي. وهذا يمنحنا الحق في أن نقول أن العامل الاقتصادي المتمثل في الترف المالي للكويت - هذا الترف الذي ساقه إليها الله من غير عناء من أهلها إذ لا فضل لهم في غناهم إلا أن أقدارهم شاعت أن يولدوا في أرض تحتها بحر من الذهب الأسود، وعدد سكانها لا يتجاوز المليون نسمة- جعل المجتمع الكويتي مشكلا من طبقتين طبقة الكويتيين، وهي طبقة سعيدة الحظ، كريمة الجد، مزهرة السعد، وطبقة المستقدمين من خارج الكويت، وبالتحديد ذوي البشرة السوداء، وهي من المستعبدين المستضعفين في الأرض، المحرومين من كل شيء حتى "وان كانت بشرة المعمر لا تعلق قيمة من بشرة ابن البلد"² يقول "جمال" في هذا السياق "رغم أن مطار الكويت منحي طمأنينية اللحظة الأولى وهي أهم اللحظات... إلا أنني امتعضت قليلا لأنني لاحظت أن أكثرهم سمرة يعمل في الوظائف الدنيا لكنني تداركت مشاعري حين اكتشفت أن اللون ليس طرفا في الموضوع ففئة العمال غالبا من الهنود وجنسيات آسيوية أخرى لأتعرف على نوع جديد من العنصرية"³ فهم تحت سلطان المال الذي تدفعه لهم الطبقة الأولى بشح وبخل وتستعبدهم بموجبه فلا ترعى فيهم ذمة للدين ولا عهدا للإنسانية، فإن شئنا أن نصطلح لهذا الشكل من أشكال العنصرية فليس لنا أن نسميه إلا الاستعباد بالخبز.

¹ - المرجع السابق، ص 196

² - اشيل ميمبي ، نقد العقل الزنجي، تر طهراوي ميلود، ص 221.

³ - سعداء الدعاس، لأنني اسود، ص 158.

ولعلّ الكاتب الكويتي "سعود السنعوسي" نسج على منوال الكاتبة "سعداء" أفكاره منتقدا المجتمع الكويتي، مكسرا التابو الاجتماعي في روايته "ساق البامبو" التي تباعدت زمنيا عن رواية "لأنني أسود"، وتقاربت مضمونيا معها حول بيئة سادها تفكير جاهلي، و لعلّ الصورة المأساوية -للخدم - التي تجلت في صفحات روايته أنهكت بعمقها العاطفي زهرة فليبينية شابة في مقتبل العمر تعمل كخادمة لدى عائلة كويتية تقوم بخطيئة مع سيدها الذي أحبها وأحبته وتزوجته لكن والدته رفضت هذه العلاقة، ورفضت ولدها الذي في أحشائها، فلم يهلها حجم الخطيئة التي ارتكبتها بل إن كل ما هالها أنها خادمه فتخلّى عنها زوجها بسبب العادات الاجتماعية للمجتمع الكويتي القاضية بوصم هذا النوع من الزيجة بالعار للطبقة الغنية، والأسوء مما في الأمر أن الوليد لما يشب على الطوق يعود من الفلبين إلى بيت جدته وأبيه المتوفى في الكويت لعله يجد في وطنه الأم انتماءه، لكن منذ أن وطأت قدماه الكويت وجد كل أنواع العنصرية في استقباله؛ فيعامل كخادم ليقرر العودة إلى مسقط رأسه، حاملا معه صمطا منسوجا بألوان معتمه فأصبح من المستحيل أن يكون مثل "شجرة البامبو لا انتماء لها نقطع جزء من ساقها... نغرسه، بلا جذور، في أي أرض.. لا يلبث الساق طويلا حتى ينبت له جذور جديدة.. تنمو من جديد.. في أرض جديدة.. بلا ماضي.. بلا ذاكره.. لا يلتفت.. إلى اختلاف الناس حول تسميته كاويان في الفلبين... خيزران في الكويت.. أو بامبو في أي مكان."¹ فالبامبو استطاع أن يجد في جذوره الحضن الدافئ في أي أرض يعزف على أوتارها لحن الإنسانية، لكن "جمال" وبطل رواية ساق البامبو تأرجحا بين وطنين -الوطن الأم والوطن الأب - لكن لم يتقبلهما بسبب جذورهم، فأصبحت رحلة الاغتراب تعانق كيانهما وأرواحهما حاملة معها خيبات وانتكاسات وانكسارات.

¹ - سعود السنعوسي، ساق البامبو، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2012، مأخوذ من صفحته الغلاف.

هكذا نسج "سعود السنعوسي" جدلية السيد والخادم في روايته فاضحا كل ألوان وأنواع العنصرية المختلفة.

ب: الأحرار أصالة والعبيد السابقين: يظهر لنا جليا في الثنائية الأولى -ومن خلال الرواية - أن سكان الكويت ينقسمون إلى طائفتين الأولى طائفة الأسياد وهم الكويتيون، والثانية طائفة الخدم المستعبدين من غير الكويتيين، وفي هذه الثنائية سنلاحظ أن الكويتيين بدورهم أي أفراد الطبقة الأولى ينقسمون إلى طبقتين طبقة تعيش وهم الأصالة التاريخية وتعتقد في نفسها أنها تمثل الأصالة العربية وأنها امتلكت حق التسيد والتسلط بالتوارث أبا عن جد، فهي طائفة العرب الأصليين المنحدرين من أصول عربية، وهي طائفة حملها الاعتزاز بذاتها وتمجيد جاهليتها على دوس تعاليم الإسلام، فإذا بها تصنف الناس بحسب ألوانهم وتتنظر إلى من خالفها في لونها من السود على أنهم أقل منها منزلة وأحط درجة وأخس قيمة وأنقص إنسانية، لأنهم ينحدرون من العبيد السابقين وهؤلاء هم عناصر الطائفة الثانية، فهم أقل كويتية من الكويتيين وإن كانوا يحملون الجنسية الكويتية وينطقون بلسان أهل الكويت ويدينون بدين أهل الكويت، فهم أبناء عبيد آبائهم، وابن العبد في مجتمع نخرته الطبقة عبد وإن كان حرا، عبد وإن تملك الأراضي، عبد وإن درس في أمريكا وحمل جواز سفر أمريكي، عبد وإن درس في الجامعة فتفوق على أقرانه البيض، عبد وإن تدرّج في المناصب، بل عبد وإن حكم البيت الأبيض وسبق في القلوب والعقول عبد وإن وهبت له حريته بموجب إبطال العبودية، وقد عبر بطل الرواية "جمال" على هذا المعنى بقوله "الأسود في الصغر لأمتع حسا، والأعذب رفقة لكنه في الكبر يتحول سليل تاريخ عبودي، يتحول بمعيته إلى خادم يحتضن دلة القهوة والفناجين،... ليمارس عليه مضيفه فرحة الواهب"¹ هكذا اكتشف "جمال" أن الكويت التي تقبل كل من أتاها وإن استعملته وأرهقته لا تقبل السود فهي لا تسميهم بأسمائهم كما تسمي الكويتيين ولا تسميهم

¹ - سعداء الدعاس لأنني اسود، ص: 254.

بجنسياتهم كما تسمى غير الكويتين بل تسميهم بلونهم أو بالإشارة إلى لونهم فهم إما سود أو خوال أو سمر فيعبر "جمال" عن هذه الشحنة العدائية بقوله: "الجميع يعرف بانتمائه،... إلا نحن نعرف بألواننا"¹، وعرف "جمال" أن سماحة الإسلام التي ساوت بين البشر، وسواد أثواب قبلة المسلمين وأول بيت وضع للناس الذي حوله يطوف الكويتيون كل سنة، وسواد حجره الأسود وسواد وجه أول رجل رفع صوته مناديا لأعظم أركان الإسلام، كل هذا لم يستطع أن يجانس صلفهم الجاهلي، وتعاليم هبل وعادات اللات، وثقافة مناة الأولى، فظهرت العنصرية المقيتة في أفعال وأقوال الكويتيين ضد السود، فهم ينادونهم بالخوال يقول "جمال" "تذكرت أنني كنت ألقب أحيانا بالخال"² وقد كان "جمال" يتصور لقب الخال لقب يستعمله الكويتيون للدلالة على المودة والمحبة ولتقريب المخاطب فيقول: "كنت أتصوره لقبا كويتيا يطلق على المقربين من الأصدقاء"، ليكتشف بعد ذلك عن طريق عمته أن الخال هو الأسود يقول:

...أوضحت لنا عمتي أن الخال هو الأسود... عندها فقط عرفت لماذا أنا خال"³، وهذه وصية والده تشرح له بوضوح أن كفاءته وحدها لن تكفي لتنزله حيث يليق به وأن كونه أمريكيا من جهة أمه وغنى عائلته كل هذا لن يكفي: عليه أن يبذل جهدا مضاعفا لينزله حيث يليق به فكتب له في وصيته "طفلي الحبيب جمال... قد يزجك الكويتيون في خانة مهنية معينة، أنت وحدك قادر على إثبات الخانة التي ترغبها لذاتك ... ستجد أبناء لونك يهرولون للانضمام لجموع الكومبارس الراقص في المسرحيات التي لا تكتفي برقصهم وتستغلهم للعب على وتر وحيد متمحور حول لونهم لا تحقق على ذلك الكومبارس الأسود، الذي عرضك لكل تلك النكات المؤلمة... أترك الغضب جانبا... وفكر

¹ - المرجع السابق، ص: 163.

² - نفسه، ص: 17.

³ - نفسه، ص: 176.

في أنك قد تكون مارتن لوثر كينغ آخر¹، فالأسود في الكويت أسود لذا عليه دائماً أن يبذل جهداً خرافياً، وأن يكون مارتن لوثر كينغ ليستطيع كسر أغلال العبودية في معصميه وكاحليه، لكنه أبداً لن يستطيع أن يكسر وثن الجاهلية ووثن العنصرية في عقول الكويتيين، فيحكي له كيف كان يفر من حصّة العربية فراراً من عنصرية أستاذ يتغنى بـ"عنصرية المتنبّي وعبقريّة كلماته الثائرة المنتقمة... من اختيار الله"²، فيتوقف الأستاذ طويلاً عند عبقرية العنصرية، وعند سواد كفور الإخشيدى إذ أن "المتنبّي" لم يجد في خلف كافر لوعده له بتوليته ولا في تحايله لبلوغ العرش نقيصة يهجوها بها فالخلف والمكر صفات عند "المتنبّي" أخف وأشرف وأنبّل من السواد فغيره بسواده فقال "لا تشتري العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد أنجاس مناكيد" فلقد التقت الكويتيون، والعرب والمسلمون إلى عبقرية "المتنبّي" في ذم خلق الله وصنيعته ولم يلتفتوا إلى أنه لو قالها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن مقالته بلغته "لقال له صلى الله عليه وسلم أعيرته بلونه إنك امرئ فيك جاهلية، كما قالها لأبي ذر الغفاري يوم تخاصم مع بلال رضي الله عنهما فقال له أبا ذر رضي الله عنه "يا ابن السوداء" فبلغ ذلك مسمع النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: "أعيرته بأمه... إنك امرئ فيك جاهلية"³ نعم وصفه بالجاهلية دفعة واحدة لأن في كلامه عادة من عادات الجاهلية وهي تصنيف الناس بحسب ألوانهم، فهو راسب ثقافي متوغل أبيض على الامحاء يتوارى لكن يلحّ على الظهور بين حين وحين.

وعلى أساس هذه الأصالة الموهومة أصبح من المستحيل في الكويت أن يتزوج الأسود من البيضاء، فالحب بسموه يطهر القلوب ولكنه عاجز على تطهير العقول من رواسبها الثقافية فهذه "سارة" الكويتية تقول له مبررة رفضها الزواج منه رغم الحب

¹ - المرجع السابق ، ص 142.

² - نفسه ، ص 143.

³ - ينظر، أحمد خيرى العمري، شيفرة بلال، عصير الكتب للنشر والتوزيع، 2016، ص 279-280-281.

"حججهم أقوى من حجتي... لو لم تكن أسود لاختلف الأمر"¹ نعم لا الدين ولا الحب ولا الإنسانية ولا العلم يمكنه أن يحاج الجهل الاجتماعي المرتكز إلى الرواسب الثقافية، فالعنصري في ثقافته عنصري وإن بلغ من الفقه والعلم ما بلغ لأنه لن يخلع ثوب العنصرية، حتى يخلع ثوب الثقافة والعادة الفاسدة، ولا فرق بين من ينصب صنم هبل وآخر ينصب صنم الألوان.

1- 2 الصراع الإثني: إذا كانت الطائفة الأولى من المجتمع الكويتي قد ألجأتهم

الحاجة إلى الكويت بموجب ميثاق الخبز، فإن الطائفة الثانية قد استعبدت نظيرتها وغلبتها على أمرها وزمت أنفسها بزمام القوة فلا تتوجه إلا إلى حيث وجهتها، وألجمت فاهما بلجام العرف والعادة مرة وبلجام التستر باسم الدين مرة أخرى - والدين من ذلك براء- فهي لا تملك أن تختار من مسارها شيئاً إذ زمام القوة التي فضلت به حكمة الخالق الرجل على المرأة ليكون حرزها وحصنها يجذبها فيوجهها توجهها يحول معه بينها وبين الاختيار، ولجام العرف المستعمل في غير ما استعملته مصلحة الجماعة والدين وعدالة الله يختمان على فمها أن تحتج أو تثور، وهنا نتكلم على هيمنة الرجل الكويتي على المرأة الكويتية واستلابه لإرادتها، بما وكله الله من وصاية في كتابه: القوامة بالعدل، والسياسة بالرفق، والمعاملة باللين، وما خوله العرف من سيادة عليها باسم ما اصطفته به طبيعة الذكر من قوة وما أرهقتها به طبيعة الأنثى من ضعف، فإذا به يستعمل القوة في غير عدل ويغلف كل ذلك باسم الدين ويحميه بقوة الساعد.

هكذا قدمت لنا "سعداء الدعاس" ثنائية الذكر والأنثى داخل المجتمع الكويتي في ظل الاتفاق المذهبي، وفي ظل الاختلاف المذهبي، لنجد أنفسنا أمام فسيفساء دينية أصبح الدين والعرف في الكويت مجرد غطاء لهيمنة الرجل، مستند للنسق الثقافي للبيئة العربية منذ

¹ - سعداء الدعاس ، لأنثى أسود. ،ص 252

زمن الجاهلية حين كانت المرأة تابعة دائماً للرجل حتى قيل أن "عمر بن العاص" قال عنها يوم حاج "جعفر بن أبي طالب" رضي الله عنه عند ملك الحبشة وكان ذلك قبل إسلام "عمر" "تطمعن ونكسوهن فإن أبين الطاعة نبيعهن"¹، هكذا حافظ الرجل على ممارسة العنصرية ضد المرأة، لكن من خلال تغليفها بغلاف الدين والعادات بعد ما كان في الجاهلية يمارسها باسم القوة وما ميزته به الطبيعة، ولا فرق بين قول "عمر رضي" الله عنه بلفظه معيار عن وضع المرأة في الجاهلية "تطمعن ونكسوهن وان أبين الطاعة نبيعهن" وبين سلوك "فوزي" بالفعل الذي يبطن "تطمعن ونكسوهن فإن أبين الطاعة في البيوت نحسهن"، فهذا ما فعله حين عمد إلى حبس أخته نادية في البيت ومنعها نهائياً من الخروج بعد أن صرحت بحبها "لوليد" الشيعي، ورغم أنه هو تزوج من مسيحية، إلا أنه رفضه متعللاً "نحن سنة ولا نعطي الشيعة"² ويردف في موضع آخر "لا تعرضني لإهاناتك أكثر يا ابن الناس"³ إن "فوزي" نفسه الذي كان يتحدث عن نفاق جارهم المتدين الذي أبي أن يزوج ابنته في قوله "جارنا ذلك متدين... لكنه يتناسى متى يشاء... أن ديننا يساوى بين البشر... هم ذات البشر يجاورهم أمام بيت الله في رحلة حج لا يفوتها سنويا ما أن ينهي ذلك العنصري رحلة الحج تلك... ويعود لسلطة قبيلته... عائلته... أمواله حتى ينقلب على مقاييس الخالق ويستبدلها بمقاييس المخلوق الذي يتأقلم إلا مع من يشابهه حد التطابق المهم لا يشوبه عرق مختلف لون مختلف"⁴ يعود لممارسة نفس الفعل حتى أصبح الرجل لا يستعمل الدين إلا ليغطي به وجه غطرسة الذكورة بقوتها في وجه الأنوثة بضعفها، هكذا أصبح معيار القوة الطبيعية والوصاية الاجتماعية للرجل على المرأة يقسم

¹ - مصطفى العقاد، فلم الرسالة، تاريخ الصدور، 9 مارس 1976 البلد (ليبيا المغرب).

² - سعداء الدعاس، لأنني أسود، ص: 183.

³ - نفسه، ص: 183.

⁴ - نفسه، ص: 188.

المجتمع الكويتي إلى طائفتين، وإن كنا نريد أن نحور في تسمية هذه العنصرية الذكورية ضد المرأة فلنسمها الاستعباد بالقوامة.

ينقسم المجتمع من جديد إلى طائفتين هما المسلمين وغير المسلمين على اختلاف ملهم، حيث يمثل الطائفة الأولى الأكثرية الغالبة من أهل الكويت والفلسطينيين والسوريين والعراقيين... وغيرهم من المستقدمين المسلمين من أطباء وعمال وخدم وموظفين في مختلف المناصب والقطاعات، بينما تمثل الطائفة الثانية (طائفة غير المسلمين) المستخدمين من غير المسلمين من أمثال الهنود، ونلاحظ من خلال الرواية عنصرية المسلمين اتجاه غيرهم رغم عدم تركيز الكاتبة على هذه الزاوية إلا أنها أشارت إليهم إشارة عابرة في موضعين الأول: عند حديث جمال عن رمضان والصوم في الكويت وهو يقول عن إجبار غير المسلمين من الخدم على تمثيل دور الصائم "فوجئت انه لا مكان لفاطر ... مريض، مسن أو طفل،... بل أنني تذكرت مرة من ينتمي لأديان أخرى...ومن لا دين له"، فتخفيف الإسلام ورفع له للخرج عن المريض والعاجز وعن الطفل حتى يبلغ، وتخيره للكافر بين الإيمان والكفر لقوله تعالى "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" (سوره الكهف الآية 29)، وقوله "لكم دينكم ولي دين" (سوره الكافرون الآية 6)، فهذا لم يمنع المسلمين من التعنت وحمل غيرهم على تمثيل دور الصائم قصرا بسبب الثقافة الخاطئة والنظر إلى الآخر المختلف عنه نظرة انتقاص يقول "جمال" جميل أن ترى البلد الذي تعيش فيه يمارس الفعل ذاته... لكن كم هو جائر أن تدوس على عنق ذلك المختلف لتجبره على أن يقوم بالفعل ذاته تستمتع بإجباره على تمثيل دور الصائم رغم أنك تدرك أنه لا يدين بدينك ولا يؤمن بفروضك...¹ فهذا التعنت والعصبية والعنصرية التي يمارسها المسلمين على غيرهم إنما تأنت من قبل فهمهم الخاطئ لنصوص القرآن إذ أن النهي عن توليهم إقرار عداوتهم لا يعني إلغاء معاملتهم بالعدل ولا ينفي حفظ حقهم في

¹ -المرجع السابق، ص 164.

الاختيار إذ أن العداة المذكور في النصوص السابقة يراد به العداة القلبي الذي حمل اتجاه فعل الكفر وليس اتجاه الكافر نفسه لأن العلاقة بين الإسلام والكفر علاقة عداة لكنها بين المسلم والكافر علاقة عدل وإنسانية ودعوى إلى الله بالتي هي أحسن وهذا ما يوافق قول الله عز وجل "ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" (سوره فصلت الآية 34) .

ثانيا: دور النسق الثقافي في تخفيف حدة العنصرية:

تعرضنا أنفا من خلال العنصرين السابقين إلى الدور السلبي للنسق الثقافي في مضاعفه العنصرية وتوجهها، لهذا سوف نتجه من خلال هذا العنصر إلى محاولة الوقوف على الآثار المورفينية للنسق الثقافي في إخماد لهيب عبء العرق ومدى الأثر الذي أحدثته الثقافة لدى الضحية كمخدر يساعده على مواجهة الأثر المدمر للشعور بالانتماء، حيث تصبح الثقافة تمارس دورا تعويظيا في التخفيف من حدة العنصرية التي أتقلت كاهل الأرواح قبل الأجساد، فأصبحت توجه ضحية القمع العنصري إلى البحث عن انتمائه في عناصر الثقافة كنوع من التنفيس عن رفض المجتمع له.

وسنقدم لهذا التعويظ بمثالين أحدهما يظهر من خلال العلاقة الثقافية التي جمعت "جمال" بشخصية "بلال بن رباح الحبشي"، وعلاقة "فوزي" بشخصية "عنترة ابن شداد العبسي" فبطل الرواية "جمال" حاول أن يجد في البيئة الثقافية الحضان الدافئ للشعور بالانتماء في ظل الرفض الاجتماعي الذي عاناه، فاستطاع لاشعوريا أن يرتبط بكل أسود يتفوق على هاجس اللون، ويدخل التاريخ، فوجد في شخصية "بلال بن رباح" رضي الله عنه صورة الأسود الذي هزه جبروت الأبيض المتوج بالسيادة، "فبلال" أذل سيده حين أسلم، وأذله حين ثبت على إسلامه رغم التحدي غير المتكافئ بينه وبين أمية، وأذله حين كان التحرر القلبي والروحي والعقلي سبيلا إلى التحرر الجسدي، وأذله حين قتله يوم بدر، وأذله حين صعد ظهر الكعبة فكان أول من رقى على ظهرها في التاريخ، ولرقي عبد

أسود على ظهر الكعبة دلالاته، وقيمته ووزنه، فقد كان هذا الرقي نفسه إيذانا بتغير الحقبة التاريخية، هكذا غدا "بلال" عند "جمال" مثالا يحتذي به يقول "جمال" في هذا الموضع: "والدتي أرادتني عربيا، كويتيا كوالدي الذي أحببت... مسلما ككل المسلمين الذين يؤمنون أن البشر سواسية يفخرون بسواد دثر ملامح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم (بلال الحبشي)"¹، "فبالل" خرج من رمزيته الدينية ومن كونه شخصية تاريخية ليصبح رمزا للمساواة بين بني البشر، كما كان شعر "عنتر بن شداد" ملاذاً "لفوزي" من عنصرية أستاذه الذي كان يقده السود ببيت "المتنبي" فيجد "فوزي" العزاء في بيت "عنتر" الذي رد الاعتبار للسواد وأقر أنه لا بياض إلا بياض الفضيلة ولا سواد إلا سواد الرذيلة يقول:

"لئن اك أسودا فالمسك لوني ... وما لسواد جلدي من دواء

ولكن تبعد الفحشاء عني ... كبعد الأرض عن جو السماء"²

ويردف "يعيبون لوني بالسواد جهالة... ولولا سواد الليل ماطلع الفجر

وإن كان لوني اسود فخصائي بياض...ومن كفي سينزل القطر"³

ردا على كل من قدح في السود بسوادهم من قبل المتنبي وبعده، فهاته الشخصيات الدينية والأدبية والتاريخية جعلت من سوادها مطية تجوب بها العصور والتاريخ وتتجاوز زمانها إلى زماننا.

و لقد وجد السود في الغرب من تبنى الإله المطرود من حسابات الفكر المادي الغربي تعويضا عما عاشوه من اضطهاد فاتخذوا تماثيل سوداء "لعيسى عليه السلام" الذي

¹ - سعداء الدعاس ، لأني اسود ، ص: 161.

² - نفسه، ص: 112.

³ - نفسه ، ص: 112.

يدين له المسيح بالربوبية يقول "جمال" "علمت بعدها أن المجسمات اليسوعية السوداء ... التي كنت أشاهدها في كنائس يرتادها السود ما هي إلا إيماننا منهم بانتمائهم إلى عرقه وهم لا يفضلون العيش فيه مقتنعين بفكرة أنه أسود، وقد يكون وهما يعيشه البيض ..."¹ هكذا رفض الأسود أن يسجد لرب أبيض فاتخذ لنفسه عيسى أسود إيماناً منه بأنه منهم وفيهم، وبهذا مارس النسق الثقافي تأثيراً مزدوجاً على ظاهرة العنصرية فمن جهة وجد فيه العنصري ما يبرر به عنصريته ويغذيها لتكون بدورها سلسلة لامتناهية من العنف ضد الآخر، ومن جهة ثانية وجد فيه الضحية ما يعزیه فيها ويعوضه ويشعره بالاعتزاز بانتمائه ويقرع بها أجراس الحقيقة في مسمعيه ليقول "عنصريه الآخر تكبلني بالأفكار فامقتني لساعات وأعود لأعشقني لساعات"².

عموماً فإن البيئة الثقافية للمجتمع تعتبر من أهم العوامل المحفزة لفعل العنصرية، فبغض النظر عن الاختلاف الواضح بين مرتكزات البيئة العربية القائمة على معايير اجتماعية طبقية بحتة، والبيئة الغربية التي يظهر منذ الوهلة الأولى أنها قائمة على تجاوز المعايير القديمة لتقييم الإنسان ومحاولة تصنيفه تبعاً لمعيار القدرة على الإنجاز الفكري وما يمكن لهذا الفرد أن يضيفه إلى صرح الحضارة الإنسانية، إلا أن النتيجة كانت هي ذاتها وتجلت في ممارسة العنصرية، ضد الآخر، لتصبح العنصرية نسيجاً متشابكاً ربما مبنياً أساساً على قول بلال رضي الله عنه "ثمة أمية في كل منا"³.

¹ - المرجع السابق، ص : 218.

² - نفسه، ص: 260

³ - احمد خيرى العمري، شيفره بلال، ص: 281.

خاتمة

حاولنا من خلال فصلي هذه الدراسة إجلاء الغمام عن ثيمة العنصرية من خلال

نموذج روائي للكاتبة "سعداء الدعاس" لنخلص إلى جملة من النتائج أهمها :

✓ استطاع المتن الروائي أن يحتضن الذات الزنجية وعوالمها الداخلية التي عاشت أهوال القهر والإقصاء واللا انتماء، فأصبحت الذات منتكسة ومهمشة تحت سياط ظلم الممارسات الثقافية والاجتماعية المختلفة .

✓ إن الممارسة العنصرية مهما اختلف زمانها وأشخاصها، فإنها تبقى تستند إلى نفس الركيزة وهي التجريد من الهوية ومسح الآخر و تذويبه في الأنا، وتغريبه عن ثقافته في ظل فضاء تحكمه هيمنة بيضاء بجميع حيثياتها وعاداتها.

✓ إن طبيعة العرق التي تظهر كمعطى بيولوجي اقتضتها حكمة الخالق بين بني البشر وأجناسهم، يتحول تدريجيا إلى قلق هوياتي، يعيشه أفراد يشعرون بالغرابة وعدم الانتماء بسبب وجودهم داخل مجتمعات تعيش فوضى الألوان، فتجرعوا المرارة من عبء هذا العرق وعزفوا على لحنه سمفونية الموت لا الحياة .

✓ مارس النسق الثقافي تأثيرا مزدوجا على ظاهرة العنصرية فمن جهة وجد فيه العنصري ما يبرر به عنصريته ويغذيها لتكون بدورها سلسلة لا متناهية من العنف ضد الآخر، ومن جهة ثانية وجد فيه الضحية ما يعزیه فيها ويعوضه ويشعره بالاعتزاز بانتمائه، فأصبحت الثقافة بمثابة مورفين توجه ضحية القمع العنصري إلى مواجهه الأثر المدمر للشعور باللا انتماء .

✓ العنصرية في البيئة العربية تجلت في أشع صورها على صعيد الجبهة الاجتماعية، واتخذت من الدين والموروث الثقافي مبررا لها مرة وغطاءً تتوارى به مرة أخرى .

✓ أصبح موضوع العنصرية يضرب بجذوره عميقا ليلا مس العديد من المجالات الفكرية والفنية البصرية ، كالسينما الهوليوودية البيضاء التي باتت تمثل سلاحا ثقافيا تستهدف به ذوي البشرة السوداء لتطمس اختلافهم وتمسح تنوعهم .

✓ قدمت سعداء الدعاس صورة الزنجي من خلال عدسة السينما وحصره في زاوية واحدة هي زاوية اضطهاد، غاضة طرفها عن العديد من النماذج التي تدافع عن الإنسانية للإنسانية، وهذا يجعلنا نتصور أن الروائية كتبت الرواية لتوثق لتوجه إيديولوجي معين يصب في نطاق إثبات تهمة العنصرية على الآخر لترينا أدلة عنصريته مهلة نماذج عدالته .

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

أولاً: المصادر

1. سعداء الدعاس، لأنني أسود، RAYAHeen ، ط1، 2010، www.mlazna.com

ثانياً : المراجع العربية

1. أحمد بعلبكي وآخرون، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، تقديم رياض زكى قاسم، بيت النهضة، شارع البصرة، لبنان، بيروت، ط1، 2013.
2. احمد خيرى العمري، شيفره بلال، عصير الكتب للنشر والتوزيع، 2016.
3. الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض مج 6، ط1، 1996.
4. أمين المعلوف، الهويات القاتلة، تر : نبيل محسن ، دار النشر دمشق، ط 1 ، 1999.
5. ألف ليلة وليلة، المكتبة السعيدية، الأزهر، مصر، ط1، مج1، 1935.
6. حسن حنفي، الهوية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط1، 2012 .
7. خطيب التبريزي، شرح ديوان عنتره، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1992.
8. خليل نوري مسيهر العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، دار الكتب والوثائق العراقية، ط1، 2009.
9. رزق عدلي مرزوق، الهوية الإفريقية في الفكر العربي السياسي الإفريقي، مكتبة عبد الملك عودة الإفريقية، 2005.
10. سعود السنعوسي ، ساق البامبو، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2012.
11. عباس محمود العقاد، داعي السماء، بلال بن رباح ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط.

12. عبد الله الغدامي ، النقد الثقافي قراءه في الأنساق الثقافية العربية، لبنان، ط3، 2005.
13. فيصل السامر، ثورة الزوج، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط1، 1954.
14. لونيس بن علي ، ادوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلي نقد الرواية الكولونيالية، الجزائر، ط1، 2018.
15. مجدي فتحي السيد، مطالع البذور مع منازل السرور في وصف حور العين نساء أهل الجنة، دار الصحابة للتراث، ط3، 1994.
14. نادر كاظم، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، بيروت، لبنان، ط1، 2001.

ثالثا : المراجع المترجمة

1. اديث كريزويل ،أفاق عصر البنيوية ،تر جابر عصفور، الكويت، ط 1 ، 1993.
2. أشيل مبمبي ، نقد العقل الزنجي، تر طهراوي ميلود، الجزائر، ط 1، 2018.
3. إيلان هاليفي، رهاب اليهودية والإسلام الصورة في المرأة، تر: سناء الصاروط ، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت ، ط 1، 2017.
4. ايان لوو، العنصرية والتعصب العرقي من التميز إلى الإبادة الجماعية، تر: عاطف معتمد وآخرون، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 2005.
5. باتريسيا ديلبيانو ، العبودية في العصر الحديث ، تر: أماني فوزي حبشي، هيئة أبو ضبي للسياحة والثقافة مشروع كلمة ، ط1، 2012.

رابعا: المعاجم

1. إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، دط ، 1982.

2. جبران مسعود، معجم الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط7، 1962.
3. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج2، 1992.
4. محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، دط، 2004.
5. مراد وهيبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 2007.

خامسا: المجلات

1. احمد إبراهيم دياب ، دراسات إفريقية ، مجله المركز الإسلامي الإفريقي في الخرطوم ، مارس 1979 ، العدد 4.

سادسا: الرسائل الجامعية

1. عادل صياد ، الأنساق المضمرة في رواية قواعد العشق الأربعون (رواية عن جلال الرومي) لإيلاف شفاق، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر ،جامعة العربي التبسي، تبسة، 2017/2016.

سابعا : الأفلام السينمائية

1. مصطفى العقاد ،فيلم الرسالة، تاريخ الصدور، 9 مارس 1976 البلد) ليبيا المغرب.

ثامنا : المواقع الالكترونية

1. تميم البرغوثي ، البردة ، بوابه الشروق، آخر تحديث 18 يناير 2013 .
www.shorouknews.com

2. حسين بسام لافي، تميم البرغوثي في القدس، موقع موضوع ، آخر تحديث 11 ديسمبر 2018 www.mawdoo3.com
3. سميرة قروي، شعرية التلقي بين سلطة النص وحرية القارئ، مقال منشور في الشبكة الالكترونية www.univ-bouira.dz
4. عصام نور الدين، الإعلان وتأثيره في اللغة العربية، مجمع اللغة العربية، شبكه الألوكة www.alukah.net
5. مريم مساعده، قيس بن الملوح، موقع موضوع ، آخر تحديث 27 اكتوبر 2017 www.mawdoo3.com
6. هشام حاكمي، الهوية الزنجية في المجتمع المغربي والعنف، قراءه في رواية ذاكره النرجس لرشيد الهاشمي ،الحوراء المتمدن، 27 - 2 - 2018 www.m.ahewar.org.

الملاحق

د. سعاد الدعاس (سيرة موجزة)

- كاتبة وناقدة كويتية، حاصلة على درجة الدكتوراه من أكاديمية الفنون في القاهرة.
- رئيس قسم النقد والأدب المسرحي، المعهد العالي للفنون المسرحية، الكويت.
- أستاذة النقد وفن الكتابة، قسم النقد، المعهد العالي للفنون المسرحية-الكويت.
- عضو هيئة تحرير، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- حاصلة على عدة جوائز محلية وعربية. أهمها :
 - من الكويت: جائزة الدولة التشجيعية لثلاث مرات، عن الرواية، النص المسرحي، والدراسات النقدية.
 - من بغداد: جائزة الإبداع الثقافي، وجائزة نازك الملائكة للقصة القصيرة.
 - ومن القاهرة: جائزة إحسان عبد القدوس للقصة القصيرة، وميدالية طه حسين.
- وجوائز أخرى من هيئة الشباب والرياضة ، ووزارة التربية في عدة مجالات.
- صدر لها :
 - (سحر الصورة - المسرح والوسائط المتعددة)، دراسة نقدية.
 - (مالا تعرفه عن الأميرات!)، مجموعة قصصية.
 - (غربة.. فيلم.. وفتان)، نصوص مسرحية، إشراف وتأطير لنتاج طلبة النقد.
 - (أنتم من قال ذلك!)، مسرحية.
 - (لأنني أسود)، رواية.
 - (عتق)، مجموعة قصصية.
- أخرجت للمسرح في القاهرة، عرض هاملتن 2009، وعرض العاصفة 2007.
- قدمت العديد من الورش في مجال فن الكتابة، النقد التطبيقي، والمسرح المدرسي.

- تم تناول مُنجزها في العديد من الدراسات وأبحاث الماجستير والدكتوراه، ولديها عشرات المشاركات المحلية والعربية، ضمن مهرجانات، مؤتمرات، ولجان.¹

ملخص الرواية :

ترصد لنا الكاتبة الكويتية "سعداء الدعاس" في روايتها "لأنني اسود" موضوع العنصرية ضد السود مستثمرة أشبع أشكال العنصرية وأوضحها وما خلفته هذه العنصرية من أضرار نفسيه، تبدأ برفض الذات والشعور بالنقص، وتنتهي بممارسة فعل الاضطهاد ضد الآخر، ومجابهة العنصرية بالعنصرية، لتنبش عن الأنماط المتوارية لهذا الفعل في شكل ثنائيات؛ فتعرض للعنصرية الطائفية (سني - شيعي)، والعنصرية الدينية (مسلم - مسيحي)، والعنصرية الثقافية (عربي - غربي) لتغوص في أعماق اللاوعي الإنساني لترينا أن العنصرية جريمة إنسانية يقترفها الجميع وتكمن في أعماق النفس البشرية، فكلنا يمارس شكلا من أشكال العنصرية دون وعي منه، وبالتالي فإن الفعل الواحد من العنصرية سيولد بالضرورة سلسلة من ردود الأفعال ضد متجنبيها.

تحدثت " سعداء الدعاس" خلال تسعه عشره فصلا -إذ تبدأ باعتذار وتنتهي بجذور ورحلة السود في البحث عن الذات- عن الأمريكية "جوان" بعد أن عاشت حياة مليئة برفض الذات والشعور بالالانتماء تحلم فيها بالضفر بفارس أقل سوادا منها لعله يعطيها بصيص أمل للخروج من حي السود وتحقيق القبول لدى الآخر، لكن القدر شاء أن تقع في حب عربي مسلم أكثر سوادا منها، "ف فوزي" الذي سحر "جوان" بابتسامته الجميلة منذ أول لقاء بينهما يتحوّل إلي ملاكها المخلص، ويحقق لها التصالح مع ذاتها، ويخلصها من رفضها للآخر بعد أن اكتشفت أنها تمارس أشكالا من العنصرية ضده دون أن تدرك ذلك. وبعد الزواج تزرق "جوان" بطفل أسود يدعى "جمال" الذي عانى منذ طفولته التمييز

¹ -تم إرساله من قبل الكاتبة عبر البريد الالكتروني يوم 1 ماي 2019

العنصري، وفجأة يصبح كل شيء مظلم بالنسبة لها بعد موت "فوزي" الملاك المخلص، تاركا وراءه وصية يطلب فيها من "جوان" أن تعود إلى الكويت لتعيش في كنف أسرته، وأن يدفن في مقابر الشيعة رغم أنه سني. وبعد سنوات من الصمت تقرر "نادية" أصغر أخوات "فوزي" أن تخبر "جوان" سبب تجنبها لها "ولجمال" طوال إقامتهما في الكويت بحيث أن "فوزي" الذي تزوج من انجليزية مسيحية منع "نادية" من الزواج بحبيبها "وليد" الشيعي، وفرض عليها إقامة جبريه في البيت لكي لا ترى "وليد" الذي جاء خاطبا فخرج طريدا مهانا. هذه القصة حطمت حب "فوزي" في قلب "جوان" وأحالت ذلك الملاك المعتدل إلى شيطان عنصري، فقررت مغادرة البلد الذي لم تجد فيه ذاتها، البلد الذي العنصرية فيه تتوارى تحت كلمات جميلة؛ مثل أن تتادي الأسود بالعبد وتردف -كلنا عبيد الله - أو تتاديه بالخال فيحسب انك تتاديه ابن الأخت وأنت في الحقيقة تريد بالخال الشامة. لقد كانت "جوان" تقاوم فقط من أجل حبيبها الذي يسكن هذا التراب، لكن حين تحطم قلبها لم يعد هناك داع للبقاء في الكويت فعادت إلى أمريكا تاركة وراءها ابنها "جمال" الذي وعدا بالالتحاق بها بعد إنهاء دراسته في الجامعة ...

بعد رحيل "جوان" تتقاطع يد سوداء مع يد بيضاء تمتد في اللحظة نفسها نحو آخر نسخه من رواية المسارات والأوجاع فيتعرف "جمال" الأسود على "سارة" البيضاء في المعرض الدولي للكتاب، ويتحول تعارف صنعه الشغف بالحرف إلى علاقة حب تدوم فتره من الزمن قبل أن تقرر "سارة" إنهاء علاقتها به متعلقة برفض العائلة لزواجها من أسود، وحين يلح "جمال" عليها تخبره أن حجتهم أقوى من حجته لأن أطفاله سيحملون الصبغة ذاتها. هكذا يحمل "جمال" حبه وخيبته على ظهره ويغادر أرضا حرمته حقه في الحب فقط لأنه أسود، فيقرر العودة إلى أمريكا ذلك البلد الذي ترأس فيه الأسود البيت الأبيض وهو يتساءل عن جذوره .

ملخص :

تروم هذه الدراسة الكشف عن لمسات الفن وهو يحاول تجلية الرواسب الثقافية التي تكمن في اللاوعي الجمعي، من خلال ممارسات الأفراد لتبرير فعل العنصرية والتعالي الذي هو موضوع رواية "لأنني أسود" للكاتبة سعداء الدعاس، وهي محاولة لتشريح الواقع الثقافي لبيئتين مختلفتين ثقافيا واجتماعيا، جغرافيا وإيديولوجيا: أمريكا/ الكويت، في نظرتهما إلى اللون، وإلى الكائن الملون والمتلون، سعيا للوصول إلى تشخيص الأسباب والدواعي التاريخية لأزمة اللون، وإن توهمنا بدءاً بأن العنصرية مركوزة في الرجل الأبيض، إلا أنه سرعان ما تبدت لنا سلسلة لا متناهية من العنصريات حتى مع الملونين أنفسهم..